جامعة آل البيت
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة
(٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah، and his policy according to historical sources and modern studies.
(١١٨٠-١٢٢٥)A.D/٥٧٥-٦٢٢A.H)

إعداد الطالب
عبدالله معيض محمد العجمي
١٥٧٠٣٠٣٠٠٤

إشراف
أ.د. محمد صياح العيسى

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ
من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت

الفصل الدراسي الصيفي
٢٠١٧م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التفويض

أنا الطالب: عبدالله معيض محمد العجمي؛ أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

الاسم: عبدالله معيض محمد العجمي

التوقيع: .....

التاريخ: 9 / 8 / 2017م.

ب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إقرار والتزام

أنا الطالب: عبدالله معيض محمد العجمي **الرقم الجامعي: 1570303004**

التخصص: ماجستير تاريخ. **كلية الآداب والعلوم الإنسانية**

أقرُّ بأنني قد التزمتُ بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول، والمتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه، إذ أن قمت شخصيًّا بإعداد رسالتي الموسومة بـــ:

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

(575-622ه/1180-1225م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah, and his policy according to historical sources and modern studies.

A.D/575-622A.H)1225-1180)

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية، كما أنني أعلم بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستله من رسائل أو كتب أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وتأسيساً على ما تقدم، فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك، بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها، وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها، دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيـــع الطالب: .....

التـــاريـــخ: 9/ 8/ 2017 م.

ج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها :

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة (575-622ه /1180 -1225 م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah, and his policy according to historical sources and modern studies

(575-622 A.H/1180- 1225A.D)

واجيزت بتاريخ : / /2017 م.

إعداد

عبد الله معيض محمد العجمي

إشراف

أ.د محمد صياح العيسى

أعضاء لجنة المناقشة :		التوقيع
الاستاذ الدكتور . محمد صياح العيسى	مشرفا ورئيسا	.....
الدكتور . انور الخالدي	عضوا	.....
الدكتور. موسى بني خالد	عضوا	.....
الدكتور . محمد العناقرة	عضوا خارجيا	.....

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإهداء

إلى كل من ساندني ودعمني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى الدكتور محمد صياح العيسى- الفاضل المشرف على هذه الرسالة، وكان لملاحظاته وإرشاداته الطيبة الأثرّ الأكبر في إتمام هذا الجهد الأكاديمي، فله مني كل الشكر والتقدير والعرفان، متمنياً من المولى عزّ وجل أن يزيده علماً ورفعة، وأن يجزاه عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل لتكرمهم بقبول مناقشة هذه الرسالة والذي زادني وإياها بهم شرفٌ ورفعة لما بذلوه من جهد ووقت في قراءتها ووضع ملاحظاتهم السديدة وإضاءاتهم النيّرة التي أثرّت هذه الدراسة، كل من حضرة الدكتورأنور الخالدي الدكتور موسى الخالدي، والدكتور محمد العناقرة.

كما أتقدم بشكري وعظيم امتناني إلى الذين نهلت من علمهم وتتلمذت على أيديهم والذين غمروني بما لديهم من علم ومعرفة؛ أساتذتي الأكارم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في "جامعة آل البيت".

الباحث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات ..... ز

ملخص ..... ط

مقدمة: ..... ك

الفصل الأول الخليفة الناصر لدين الله ١

المبحث الأول: حياته وشخصيته ١

المبحث الثاني: سياسته في البلاط ٢

المبحث الثالث: سياسته مع المعارضة ٩

الفصل الثاني الخليفة الناصر لدين الله في المصادر التاريخية ١٩

المبحث الأول : المصادر التي جاءت على ذكر الناصر ١٩

المبحث الثاني: صورة الناصر السلبية في المصادر ٢٦

الفصل الثالث علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة ٣٥

المبحث الأول : العلاقات مع الخوارزميين ٣٥

المبحث الثاني : العلاقات مع الأتابكة ٤٣

المبحث الثالث: العلاقات مع الأيوبيين ٤٧

الفصل الرابع سياسة الخليفة الناصر لدين الله في المجتمع من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة ٥٦

المبحث الأول: فئات المجتمع ٥٦

المبحث الثاني: الأعياد والمواسم ٦٢

المبحث الثالث: مجالس الخليفة الناصر ٦٥

المبحث الرابع: المرافق الاجتماعية ٦٨

الفصل الخامس سياسة الخليفة الناصر لدين الله الاقتصادية من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة ٧٢

المبحث الأول: الزراعة ٧٢

المبحث الثاني: الصناعات ٧٥

المبحث الثالث: التجارة ٧٧

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الرابع: الإقطاع ٨٣
الخاتمة ٨٧
قائمة المصادر ٨٨
أولاً: القرآن الكريم. ٨٨
قائمة المراجع ٩٣
Abstract ٩٥

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملخص

تعتبر فترة خلافة الناصر عند المؤرخين المحدثين هي فترة الصحوة قبل الموت، وكان يقصد بذلك أن الخلافة مرّت بفترة انتعاش، وأن الدولة العباسية ازدهرت على جميع الأصعدة وكافة المجالات.

عرف عن الخليفة الناصر أنه في عهده تخلصت الخلافة والعراق من السيطرة السلجوقية ولم يعد هناك تعديات مهينة ولا غير ذلك، وعرف عنه أيضاً أنه جاء للخلافة ووجد أمامه تنظيمات اجتماعية شعبية ومن الصعب بل من المستحيل عليه حل هذه التنظيمات، فنصّب نفسه كبيراً للفتيان بمساعدة الشيخ عبد الجبار، وأصبحت الفتوة مؤسسة رسمية لها تقاليد منظمة رأسها الخليفة الحاكم، وزاد على ذلك بأن أخضع أمراء الأطراف للفتوة وبعث إليهم بذلك.

وعليه تأتي هذه الدراسة لتدرس هذه المرحلة بدءاً من الخليفة وصورته في المصادر والمراجع، ثم تذهب الدراسة لتدرس علاقات الدولة العباسية زمن الخليفة الناصر، والحياة الاقتصادية بكل مجالاتها، معتمدةً في ذلك على ما توفر من المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الخليفة الناصر، الخلافة العباسية، الفتوة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاختصارات المستخدمة

أشير إلى المصادر والمراجع في الهوامش على النحو الآتي:

ترمز الحروف الآتية إلى ما يلي:

ت	الوفاة
هـ	الهجري
م	الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د. ط	دون طبعة
د. ت	دون تاريخ نشر
د. ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P.	رقم الصفحة بالانجليزي
vol.	رقم الجزء بالانجليزي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

يتميز العصر الذي شغله الخليفة الناصر بانتعاش الدولة العباسية، بعد زمن طويل من التفكك والانحلال والانقسامات الداخلية، وذلك جرّاء ما مرّ سابقاً على الدولة العباسية من سيطرة الأتراك، ثم البويهيين ثم السلاجقة، وما تبع ذلك من انهيار معنوي لمؤسسة الخلافة، فلم يعد الخليفة كما كان في السابق، فهو واجهة تملك ضياعاً واقطاعات ولكنها لا تحكم مطلقاً، بل على العكس تماماً أصبح منصب الخلافة يُعبّأ من قبل القوى العسكرية المسيطرة سواء بويهيين أم سلاجقة.

ولقد استطاع الخليفة العباسي الناصر لدين الله أن يظل خليفة للمسلمين نحواً من سبعة وأربعين عاماً، وذلك في وقت تناقصت فيه مدد حكم الخلفاء بعده وقبله، ويرجع السبب في ذلك إلى شخصيته التي امتازت بخصائص كفلت له اتباع أساليب معينة في السياسة والحكم من نوع آخر غير الذي سار عليه آباؤه وأجداده، وهذا أعاد له زمام القيادة والحكم مجدداً لفترة طويلة نسبياً من الزمان، وقد وصف بعض المؤرخين المحدثين هذه الفترة بأنها فترة الانتعاش الأخير قبل الموت.

وفي هذا الفترة تأخذ العلاقات مع دول الجوار طابعاً جديداً، فهناك علاقات مع الأيوبيين في مصر والشام، وعلاقات مع أتابكة الجزيرة والموصل، وعلاقات مع شاهات خوارزم في المشرق الإسلامي، وهي بمجملها علاقات كان لها تأثير بالغ في سياسة الدولة العباسية.

وحين يكون الحديث عن الخلافة العباسية والخليفة الناصر لا يمكن تجاهل أكبر المخاطر التي بدأت تطرق باب الخلافة العباسية من الشرق وهم المغول، وهم ذاتهم الذين سيسقطون الخلافة العباسية في بغداد في موجة من أشد موجات الفتك والتدمير التي عرفها تاريخ العصر الوسيط.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الفترة وأقصد هنا القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين قد تميزت بازدهار الحضارة فيها، فتقدمت النظم المالية فاهتم خليفة بغداد وأمراء الدويلات المستقلة بالمشرق بزيادة موارد الدولة المالية، وتنظيم أوجه الإنفاق فيها، فقد أدركوا أن تعزيز دولهم لا يتحقق إلا بتنمية موارد الثروة في دولهم وكياناتهم السياسية، وتحقيق الرخاء لرعيتهم، وتوفير سبل الأمن والاستقرار فيها، لذا فإنهم اعتنوا بأمور الزراعة وعملوا على إكثار المحاصيل فيها، ونظّموا وسائل الري في أرجاء دولهم.

ويرتبط بذلك انتعاش التجارة الداخلية، فقد نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ومدن المشرق الإسلامي، بسبب إنشاء الطرق وتأمينها، الأمر الذي سهّل نقل البضائع بين بلدان الخلافة العباسية وغيرها من المناطق الأخرى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحين تنشط الزراعة والاقتصاد فإن ذلك سيرافقه حركة علمية وأدبية، فقد ازدهرت هذه العلوم في بلاد العراق والمشرق الإسلامي، فاهتم كثير من الفقهاء والعلماء بالاشتغال بالعلوم الدينية واللسانية من قراءات وتفسير وحديث وفقه ونحو ولغة، كما نبغ عدد آخر من العلماء بالعلوم التجريبية والكونية، وحفلت دار الخلافة العباسية وبلاط أمراء بلاد المشرق الإسلامي بنخبة من مميزة من العلماء.

أما بالنسبة للخطة التي سرت عليها في الدراسة فقد تمثلت بتقسيم الدراسة إلى خمسة فصول، الفصل الأول فكان مخصّصاً للخليفة الناصر لدين الله، ودرسنا فيه حياته وشخصيته، وسياسته في البلاط وسياسته مع المعارضة، أما الفصل الثاني فكان بعنوان الخليفة الناصر لدين الله في المصادر التاريخية، وحاولنا أن نستجلي الصورة التي تبدو متناقضة في المصادر والمراجع في كثير من الأحيان بين مدح وذم، ثم يأتي الفصل الثالث ليدرس علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة، وكانت أهم الأطراف التي تستحق الدراسة هي ثلاثة أطراف الخوارزميين والأتابكة والأيوبيين، ثم بعد ذلك يكون الفصل الرابع تحت عنوان سياسة الخليفة الناصر لدين الله في المجتمع من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة، ليدرس أربعة عناوين وهي طبقات المجتمع والأعياد والمواسم ومجالس الخليفة الناصر والمرافق الاجتماعية، وأخيراً يأتي الفصل الخامس ليدرس الحياة الاقتصادية وسياسة الخليفة الناصر، وأهم مجالات الحياة الاقتصادية هي الزراعة والصناعة والتجارة والاقطاع، أما الخاتمة فقد أوجزت فيها النتائج التي توصلت إليها الدراسة، كما احتوت الدراسة على قائمة بالمصادر المطبوعة، والمراجع والبحوث العربية والأجنبية التي أسهمت في مجموعها في بناء هيكل البحث وما توصل إليه من نتائج.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث

اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة مختلفة من المصادر التي تشكل مادتها ركناً أساسياً في هذه الدراسة، وسيكون التركيز هنا على قيمة كل مصدر من المصادر بمقدار ما أفادنا ذلك المصدر وما قدّم من معلومات عن الناصر والخلافة العباسية، وسأعرض هذه المصادر ضمن مجموعات.

١- كتب التاريخ، وهي العماد الرئيس الذي عليه تبنى هذه الدراسة، ومن أهمها كتاب ذيل الروضتين لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م) وهو كتاب ذيّل به على كتابه السابق " عيون الروضتين في أخبار الدولتين"، من أوسع الكتب التي أرخت لفترة أواخر القرن السادس وبداية السابع الهجري، ومع أن جلّ اهتمامه كان منصبّاً على الأيوبيين وصراعاتهم الداخلية، وحروبهم الخارجية مع الصليبيين، إلا أنه أعطى معلومات هامة عن الخليفة الناصر، ويتميز هذا الكتاب بأنه قريب زمنياً من فترة الدراسة، ومن كتب التاريخ أيضاً كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق، لمحمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه الأيوبي (ت٦١٧ هـ /١٢٢١م) وهو من أهم مصادر الدراسة بدأ كتابه سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م وهي السنة التي اعتلى فيها الناصر الحكم، كان معاصراً للأحداث وقريباً منها، ومطّلعاً على الوثائق وما يجري في الدول والإمارات بحكم أنه كان أميراً على منطقة حماه، وتناول أحداث سياسية كثيرة في العراق والشام ومصر، ولم تقتصر إفادة هذا الكتاب على فصل معيّن، بل كان مفيداً في معظم فصول الرسالة، وأيضاً كتاب الكامل في التاريخ لعلي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠ هـ /١٢٣٣م)، وهذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ السياسي، وهو يشابه في منهجه كتاب الطبري " تاريخ الرسل والملوك"، أفادنا في كل المواضع ولكن بدت أهميته في الفصل الثالث " علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة"، وكذلك كتاب راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية لمحمد بن علي بن سليمان الراوندي (ت٥٩٩ هـ /١٢٠٣م)، وكما يبدو من عنوان الكتاب أنه مختص بتاريخ الدولة السلجوقية، وقد أفادنا أيضاً في الفصل الثالث " علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة"، وكتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ليوسف بن قزأوغلي المشهور بسبط بن الجوزي (ت٦٥٤ هـ /١٢٥٦م)، أفادنا في الفصل الأول عندما تطرقنا لحياة الناصر وسياسته في البلاط وسياسته مع المعارضة، وكان معاصراً لأغلب الأحداث التي ذكرها، وكتاب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧ هـ /١٢٠١م) جمع فيه بين الحوادث والتراجم على النحو الذي أصبح متبعاً من بعده، إضافةً إلى مسرد الأحداث المرتب حسب السنوات، أفادنا في التمهيد للمرحلة التي سبقت مجيء الخليفة الناصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢- كتب الأدب، وأهمها كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد بن علي المعروف بالقلقشندي (ت٨٢١ هـ /١٤١٨م) نشأ وناب في الحكم وتوفي في القاهرة، وهو من دار علم، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء، أفادنا في ذكر الكنى والألقاب التي كانت تمنح لموظفي ديوان الخلافة العباسية، كما أنه أفادنا في الحديث عن الإقطاع في الفصل الخامس، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي (ت٧٠٩ هـ /١٣٠٩م) كان مفيداً بشكل قليل، وبالتحديد في الفصل الأول عند الحديث عن سياسة الخليفة الناصر في البلاط، ومن المعروف أن هذا الكتاب يصنّف ضمن ما يسمى كتب السياسة الشرعية، كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ، وهو كتاب أدب ولكن اعتمدنا عليه عند الحديث عن التجارات والسلع التي تم تبادلها بين بغداد وغيرها من الأقاليم.

٣- كتب السير والتراجم وبطبيعة الحال هي مصدر معلومات لسيرة الأعلام ومن أهمها كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١ هـ /١٢٨٢م) وهو من كتب التراجم المهمة، وفيه معلومات هائلة عن الفقهاء والأدباء والوعاظ والمتصوفة وأهل الحكم، وتعد تلك التراجم من أوسع التراجم وأكثرها فائدة بين الكتب التي ترجمت لهؤلاء، وكتاب فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد (ت٧٦٤ هـ /١٣٦٣م) وهو كتاب مستدرك على كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان المذكور آنفاً، ويمتاز بالاعتماد على مؤلفات معاصريه من مؤلفي الموسوعات، وكتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت٧٦٤ هـ /١٣٦٣م) من أجل مؤلفات الصلاح الصفدي، وأوفى الكتب المؤلفة في الإسلام في تراجم الرجال، وضعه الصفدي في ثلاثين مجلداً، اعتمدنا على هذه المصادر في التعريف بالشخصيات والأعلام الواردين في هذه الرسالة.

٤- كتب المعاجم الجغرافية مثل كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، وهو كتاب مختص للتعريف بالأماكن الجغرافية، وأفادنا في التعريف بالمدن وتحديد مواقعها، ولكن ما ميّز كتاب معجم البلدان في هذه الرسالة أنه كان مصدراً مهماً عن الزراعة والصناعة والتجارة في العراق في العهد العباسي، فهو يذكر كل بلدة وبما تشتهر به من مزروعات وسلع، وكان المصدر المهم في الفصل الخامس، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت٣٨٠ هـ /٩٩٠م)، كان رديفاً ومكملاً لمعجم البلدان في التعريف بالأماكن وتحديد مواقعها.

٥- كتب المعاجم اللغوية مثل كتاب لسان العرب لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت٧١١ هـ /١٣١١م) وكتاب تاج العروس لمحمد بن عبد الرزاق الزبيدي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(ت١٢٠٥ هـ /١٧٩٠م) وكتاب القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب للفيروز آبادي (ت٨١٧ هـ /١٤١٤م) وكتاب المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون وهو من الكتب الحديثة.

٦- المراجع الحديثة التي اختصت بالحديث عن العراق والناصر ومن أهمها كتاب عودة الروح للخلافة الإسلامية، لمحمد صالح محي الدين محمد، وهو من أفضل الكتب التي تناولت الخليفة الناصر، وأستطيع القول أنه المرجع الرئيس الذي اعتمدت عليه في هذه الدراسة، ومع أن الكتاب كان شاملاً وافياً، إلا أنني استطعت أن أضيف بعض المعلومات وأطرق بعض الجوانب التي لم يذكرها، وقد بدأ كتابه بتمهيد عرض فيه للأحوال الداخلية للعراق قبيل تولية الناصر للخلافة، وركز اهتمامه على إبراز جهود كل من الخليفتين المسترشد والراشد في استعادة سلطة الخلافة وتأكيد سلطانها الزمني جنباً إلى جنب مع سلطانها الديني، واعتمد المؤلف على مجموعة من المصادر المعاصرة لهذه الفترة، كما أنه اعتمد على المخطوطات ذات القيمة الكبيرة، مثل مخطوطة ذيل على ذيل تاريخ بغداد للسمعاني (ت٥٦٢ هـ /١١٦٧م) التي وضعها جمال الدين محمد بن سعيد بن يحيى المعروف بابن الدبيثي (ت٦٣٧ هـ /١٢٣٩م) .

كتاب دراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري، وكتاب بغداد مدينة السلام لكوك ريجارد، وأيضاً كتاب الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية" لحافظ أحمد حمدي، وكل هذه المراجع كانت مهمة ومفيدة في كل فصول الرسالة.

التمهيد

الخلافة العباسية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي

لمحة سياسية:

عندما يكون الحديث عن القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فإن أهم شيء يجذب الانتباه في هذا القرن هو المحاولات المضنية التي عملها الخلفاء للتخلص من السيطرة والنفوذ السلجوقي، فمنذ أن تولى المسترشد الخلافة سنة ٥١٢ هـ /١١١٨م نجد أنه بعث روحاً جديدة للخلافة، وكان أول ما بدأ به هو محاولة تكوين جيش خاص بالخلافة[1]، بشكل مستقل عن الجيش السلجوقي،

(١) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣ ص٥٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان المسترشد شهماً شجاعاً ذا همة ومعرفة وعقل، وكان مشتغلاً بالعبادة، سالكاً في الخلافة سيرة القادر، قرأ القرآن وسمع الحديث وقال الشعر، ومن شعره: (على الطويل)

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم ... ومن يملك الدنيا بغير مزاحم [١]

وقد أشـاد به ابن الأثير فقال: " تمكن من الخلافة تمكناً عظيماً لم ير أحد ما تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب....[٢]، ورأى المسترشد أن يصلح الأمور في العراق قبل أن يتفرّغ للسـلاجقة، وقد كان دبيس بن صـدقة المزيدي عاث فسـاداً في الفرات الأوسـط وهـدّد المدن والقرى والقوافل التجارية، فعزم الخليفة على وضـع حد لتجاوزاته، وكانت هذه الحادثة ليتأكد من وقوف الناس معه واسـتعدادهم للقتال دونه[٣]، " فأمر الخليفة فنودي ببغداد: لا يتخلف من الأجنـاد أحـد، ومن أحـب الجنـديـة من العـامـة فليحضرـ، فجـاء خلق كثير، ففرق فيهم الأموال والسـلاح"[٤]، ويتابع ابن الأثير فيقول: " فنادى أهل بغداذ: النفير النفير، الغزاة الغزاة! وكثر الضجيج من الناس، وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة"[٥]، وهنا يتبين أن هناك فئات كثيرة شاركت مع المسترشد، وكانت النتيجة أن انهزم عسكر دبيس وحملت الأسرى إلى بين يديه أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً، ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً[٦]، وكأن هذا النصر كان تمهيداً للنصر الذي تحقق سنة ٥١٩ هـ /١١٢٥م على طغرل بن محمد السلجوقي، الذي حاول بقواته وقوات دبيس المزيدي غزو بغداد فقتل.

ورغم محاولة الخليفة ضرب الأطراف ببعضـها إلا إنه لم ينجح في ذلك، فقد اتفق السـلطان سنجر مع السلطان محمود على محاربة الخليفة[٧]، وجاؤوا قاصدين الحرب، فكانت مقاومة أهل بغداد عنيدة

---

(١) الكتبي، محمد بن شـاكر (٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) فوات الوفيات، ط١، ج٣، تحقيق إحسـان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣ ص١٨١.

(٢) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ص٥٠.

(٣) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ج٨، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧ ص٦٥١.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٨٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٨٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٨٤.

(٧) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧ هـ /١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، ج١٧، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢ ص٢٣١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ضد السلاجقة، ومما زاد في صلابتهم أن الخليفة المسترشد كان يقود المعركة بنفسه، وكان العامة وسواد الناس يقاتلون بجانب الخليفة، وكانوا يشتمون السلطان السلجوقي ويقولون : " يا باطني تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة"[١]، وقد استمر القتال وظل المسترشد يدافع عن بغداد حتى اضطر السلطان السلجوقي إلى الانسحاب، واتفق الطرفان على الصلح والموادعة، " ووقع الصلح والتحليف، ودخل جيش السلطان وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في العسكر..... وظهر من السلطان حلم كثير عن العوام، وأمر الخليفة برد ما نهب من دور الجند"[٢]، وعلى ما يبدو أن هذا الصلح كان تحضيراً لمرحلة جديدة، فكلا الطرفين أخذ يستعد لجولة قادمة ومما زاد في قوة الخلافة أن أمراء السلاجقة أخذوا يتنافسون فيما بينهم.

وتعتبر سنة ٥٢٥ هـ /١١٣١م سنة ذات علامة فارقة في تاريخ الخلافة، ففيها توفي السلطان محمود، واشتدت حدة المنازعات بين أمراء السلاجقة، فعملت الخلافة على إضعافهم وإضعاف أعوانهم من ملوك الأطراف مثل عماد الدين زنكي وكذلك دبيس بن صدقة[٣]، ونجح المسترشد في تأديب عماد الدين في الموصل، والتجأ إليه دبيس طالباً العفو، ولا شك أن الخلافة قد سيطرت سيطرة تامة على العراق، وهذا ما يؤكده ابن العمراني بقوله:" واستولى المسترشد بالله على جميع ما كان للأتراك بالعراق وأقطعها، ونفذ إقبال خادمه المعروف بجمال الدولة إلى الحلة وأمّره على بلاد بابل وضم إليه عشرة آلاف فارس من العرب والترك والأكراد وطوّقه وسوّره ولقّبه حسام الدين، سلطان الأمراء ملك العرب، وجاء إلى طاعته صاحب فارس وجاءته العساكر من الشام وديار ربيعة، وانضم إليه من التركمان والأعراب والأكراد خلق لا يحصى، ووقعت الهيبة في قلوب الملوك"[٤].

وكان المسترشد ينتهز أي مناسبة من شأنها أن تعزز روح الثقة بالنفس، ويستغل الفرص والمناسبات لإظهار قوته، وإحياء التقاليد العسكرية بين الناس، وكان يأمر بالقيام بالاستعراضات

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، ط١، ج١٢، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨ ص٢٤٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ط١، ج١٢، ص٢٤٤.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٢٦٣-٢٦٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٩.

(٤) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠ هـ /١١٨٥م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠١ ص٢١٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العسكرية ليشهد الجميع قوة الخلافة، فقد بلغ الجيش في استعراض سنة ٥٢٨ هـ /١١٣٤م خمسة عشر ألفاً من الفرسان[١].

إن هذه الاستعدادات لم تكن لتحصل لولا أن الخليفة كان يتنبّأ بوقوع الحرب، وفعلاً وقعت الحرب، وكان اعتماد الخليفة على جيشه الصغير وعلى أمراء الأقاليم من السلاجقة، ولكن هؤلاء خانوا العهد وانضمّوا إلى مسعود، وظلّ الخليفة في ساحة المعركة حتى أُسر مع أصحابه[٢].

ثم حصل اتفاق سري بين الطرفين بين سنجر ومسعود لاغتيال المسترشد واتهام الباطنية بذلك، فبعد أن تظاهر مسعود باتفاقه مع الخليفة على العودة إلى بغداد مقابل تعهد الخليفة بعدم تنظيم جيش جديد، وتم ما خُطّط له فاغتيل الخليفة في مراغة بأذربيجان سنة ٥٢٩ هـ /١١٣٥م بتدبير من السلاجقة[٣].

ثم بعد ذلك تولى الراشد الخلافة وكان شبيهاً لوالده المسترشد في قوة شخصيته، ومحاولته التقرّب من الرعية ولذلك يمكن أن تعتبر خلافته التي قاربت السنة امتداداً لمناهضة السلاجقة التي قادها أبوه المسترشد من قبل[٤]، وليتمكّن السلطان السلجوقي من حكم العراق وعدم إتاحة الفرصة للراشد لممارسة صلاحيات الخليفة، قام بمنعه من بناء قوات عسكرية مرة ثانية، لذا منع عنه الأموال لكي لا يستخدمها في بناء الجيش، وزاد على ذلك أن طالب الخليفة بأموال جديدة[٥].

ثم قرّر الراشد الاعتماد على المقاتلة من أهل بغداد حيث اعتمد عليها في طرد القوات السلجوقية من بغداد والتي لم تصمد أمام الهجوم وانحدرت إلى واسط، وانضم إلى الراشد العديد من الأمراء، حين سمعوا بطرد القوات السلجوقية من بغداد[٦]، ولكن تغيّرت الأمور بعد ذلك حيث تمت محاصرة بغداد لأكثر من خمسين يوماً، وزادت إمدادات السلاجقة، فانسحب الراشد نحو الموصل، ليجنّب بغداد مضار الحرب، فدخلها مسعود دون قتال، عندها قرّر السلاجقة عزل الخليفة مبرّرين ذلك بتهم ألصقت به،

---

(١) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨ هـ /١٣٤٧م) العبر في خبر من غبر، ج٢، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠ ص٤٣٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٦٢-٦٣.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط٢، ج٥، دار الكتب والوثائق القومية، مصر ٢٠٠٥ ص٢٥٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ط١، ج١٢، ص٢٥٧.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٣٠٧.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٧١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مثل شرب الخمور وارتكاب الفسق والفجور وكان ذلك سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦م، ولكن الراشد لم يقطع الأمل مطلقاً، فقد تجوّل في الأقاليم يجنّد الجنود ويتحالف مع الأمراء، ومع أنه انتصر على مسعود سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨م إلا أن مسعود كان يوفّق كل مرة في إبعاد الأمراء عن الخليفة بالترغيب وبالتهديد، ولما لم ييأس الخليفة المخلوع من أمله باستعادة الخلافة فإن مسعود قد أرسل إليه من اغتاله في أصفهان في صفر من سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨م[١].

ثم اختار السلاجقة المقتفي لأمر الله خليفةً للمسلمين وظنوا أنه الاختيار الأنسب، " بايعوه على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر وأخذوا جواري خادمات وغلمان، وكان ابن الداريج ينوب عن العميد، فضمن أطيان سلاحية الخليفة بمائة ألف دينار"[٢]، لهم فكانت النتيجة عكسية، فقد أظهر مقدرة عسكرية فائقة وحرص بالغ على إدارة الأمور، يقول الصفدي عنه: " كان من سروات الخلفاء عالماً ديناً شجاعاً حليماً دمث الأخلاق كامل السؤدد قليل المثل في الخلفاء لا يجري في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه وكتب في خلافته بخطه ثلث ربعات..." [٣]، ويقول الرحالة بن يامين التطيلي : " كان من أعظم خلفاء بني العباس، إذ إنه قضى على نفوذ السلاجقة وأعاد للخلافة عزها وسؤددها ونفوذها السياسي إلى جانب نفوذها الديني"[٤]، لقد كان النفوذ الديني هو السلاح القوي بيد الخلافة، فحين اختلف مع السلطان مسعود أمر بغلق المساجد ثلاثة أيام مما أجبر السلطان على الاستجابة لمطالب الخليفة، وحين طالبه مسعود بالأموال رفض ذلك قائلاً : " ما رأينا أعجب من أمرك أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى وعاد أصحابه عراة، وولى الراشد ففعل ما فعل ثم رحل وأخذ ما بقي من الأموال ولم يبق في الدار سوى الأثاث فأخذته جميعه وتصرفت في دار الضرب ودار الذهب، وأخذت التركات والجوالي فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً....." [٥].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٣١١.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٣١٤.

(٣) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤ هـ/١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، ج٢، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ ص٦٨.

(٤) التطيلي، بنيامين بن الرابي يونة (ت٥٦٩ هـ/١١٧٣م) رحلة بنيامين التطيلي، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٢ ص٣٨٩.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٣٢٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واتخذ الخليفة مجموعة من الاجراءات يطول شرحها في هذا المقام، ولكن فحواها يدل دلالةً واضحة على رفض التسلط السلجوقي، وإعادة بعث قوة الخلافة من جديد، وإن هذه التصرفات لم تعجب السلطان محمد السلجوقي لذلك بدأ من سنة ٥٤٩ هـ /١١٥٤م للهجوم على الخلافة واحتلال بغداد، كما وأنه بدأ يحرّض أعوانه من الأمراء التابعين له لتنفيذ خطته، واتجه جيش محمد السلجوقي نحو العراق، واتخذ الخليفة عدة خطوات من أهمها قطع الجسر، وضرب المناطق التي تمركز فيها السلاجقة من قبل أهل الكرخ وأهل باب البصرة، فانسحب الجند وكسب المهاجمون أموالاً ومعدات سلجوقية، يقول ابن الجوزي: " ووقع النفير ببغداد ولم يصل الجمعة إلا قليل ونودي من الديوان بحمل السلاح فلبس العوام والتجار والرؤساء ثياب الحرب.....[1]". وكان الحصار قوياً على بغداد وأهلها، إلا أن ما فتّ في عضد هذا الهجوم أن جيش أتابكة الموصل قد فتر ولم يشارك في الحصار بل إن نور الدين محمود زنكي أرسل رسالة إلى أمير الموصل وإلى قائد الجيش يأمرهما باسترضاء الخليفة، وبهذا انتهى الحصار السلجوقي دون أن يحقق أي نتيجة[2].

لقد كان موقف الخليفة المقتفي لأمر الله مثالاً يحتذى من قبل من خلفه من الخلفاء العباسيين، وخاصة الخليفة الناصر لدين الله الذي سار على نفس السياسة الرشيدة للمقتفي، فهدم دار السلطنة السلجوقية ورفض طلب طغرل الثالث بذكر اسمه على الخطبة، ووسّع من نفوذ الخلافة العباسية فشملت العراق بأجمعه، وضم الأحواز إلى العراق وأعقبها بأصفهان وهمذان[3].

لقد توّجت هذه الانجازات بإنهاء السيطرة السلجوقية رسمياً عن العراق سنة ٥٩٠ هـ /١١٩٣م، وبذلك تحقق للخلافة الاستقلال النهائي عن السلاجقة الذي دخلوا العراق منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص١١٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٣٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

الخليفة الناصر لدين الله

المبحث الأول: حياته وشخصيته

أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد، الملقب بالناصر لدين الله، وقد بويع بالخلافة بعد أبيه المستضيء في مستهل ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، وقام بأخذ البيعة له ذو الرياستين مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب أستاذ الدار[١]،

وظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار صاحب المخزن، وحضر البيعة القضاة والأشراف وبنو هاشم وعدد كبير من بني العباس، وبايعه أيضاً الحجاج القادمون من خراسان، وأنشد الشعراء قصائدهم بين يديه، وخطب له في بغداد، ونثرت الدنانير على المنابر في المساجد، ثم أنفذت الكتب مع الرسل إلى سائر البلاد الإسلامية، فصدر الدين عبد الرحمن شيخ الشيوخ سار إلى أتابك بهلوان محمد لن إيلدكز بهمذان[٢]، فتردد بدايةً ولكنه بايع بعد ذلك، وسارت رسل للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فبايع وأقام الدعوة فيما تحت يده من البلاد والثغور والشام ومصر، وأرسل رضي الدين القزويني مدرس المدرسة النظامية إلى الموصل فبايع صاحبها وخطب للناصر لدين الله[٣].

---

(١) هو الإستدار وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركب من لفظتين فارسيتين: إستذ ومعناها الأخذ، والثانية دار، ومعناها الممسك. القلقشندي، احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١ ، ج٥، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٧، ص٤٢٩. محمد، محمد صالح محي الدين، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ط١، دار طويق، الرياض ٢٠٠٤ ص٤٩.

(٢) همذان مدينة من عراق العجم من كور الجبل، كبيرة جداً فرسخ في مثله، محدثة إسلامية، ولها أربعة أبواب، وهي كثيرة المياه والبساتين والزروع. الحميري، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت٩٠٠ هـ /١٤٩٥م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠ ص٥٩٦.

(٣) الأيوبي، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه (ت٦١٧ هـ /١٢٢١م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة (د.ت) ص٦-٧. ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج٩، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧ص٤٤٣-٤٤٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٤٩-٥٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما عن صفاته الخلقية فلدينا نص ورد في رحلة ابن جبير يصف شكله وهذا نصه " اشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء"[١].

المبحث الثاني: سياسته في البلاط

كانت السياسة التي انتهجها الناصر في اختيار وزرائه وكبار رجال دولته تقوم على أساس المعلومات التي تصل إليه من أصحاب الأخبار، وذلك بعد أن ينشر بين الناس عن رغبته في تولية شخص معيّن لهذا المنصب أو لتلك الولاية، فضلاً عن تجاربه الشخصية المحدودة مع الناس، فإذا كان اتجاه الرأي العام في بغداد كما تعبّر عنه تقارير أصحاب الأخبار أصدر الأوامر بتعيينه[٢].

وبعد أن يستقر صاحب المنصب في منصبه فإنه يخضع لرقابة دقيقة صارمة، من قبل أصحاب الأخبار، ويعتبر منصب أستاذ الدار والوزير ونائبه من أهم مناصب الدولة آنذاك، وبالرغم من أن الخليفة لم يسندها إلا لمن يكون على قدر كبير من الثقة إلا أنه كان يضع على من يشغلها رقابة شديدة، فمثلاً كان الوزير ابن مهدي العلوي من أعظم وزراء الناصر على الإطلاق، ومع ذلك فإن الناصر اتخذ رقيباً عليه وهو آقسنقر الدوادار، فكان هذا المملوك " يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدي، وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى في إفساد الدولة"[٣]، وإن علم الخليفة أن أحد وزرائه أو موظفيه أو أعوانه ارتكب خطأً اختلف العقاب شدّةً وليناً باختلاف المنصب الذي يشغله، فربما عزله أو صادر أمواله أو حبسه، ومما يشار إليه أن الناصر لم يستثن أحداً من ذلك حتى أقربائه من بني العباس، فابن جبير الذي زار بغداد سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٥م ذكر أن الناصر احتاط بالحبس على من خشي خطرهم على السلطان والدولة[٤].

ومن شدة حرص الناصر على أن لا يكون هناك ثغرة إلا ويسدها فقد اعتقل أقرب الناس إليه وهو ابنه أبو نصر محمد، فقد عيّنه وليّاً للعهد سنة ٥٨٥ هـ /١١٨٩م وأرسل إلى البلاد يأمر بأن يُخطب له، كما يقول ابن الأثير: " خطب لولي العهد (أبي نصر) محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد،

---

(١) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤ هـ /١٢١٧م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٩٠ ص١٨٢.

(٢) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن محمد (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت ١٩٩٧ ص٣٠٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٠.

(٣) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٦٦٥ هـ /١٢٦٧م) الذيل على الروضتين، ط١، صححه محمد زاهد الكوثري، القاهرة ١٩٤٧ ص٦١.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٣-١٧٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٠-٥١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونثرت الدنانير والدراهم، وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة، ففعل ذلك"[1]، وفي سنة ٦٠١ هـ /١٢٠٤م عاد الناصر مرة أخرى فقطع الخطبة عنه، وكتب إلى كل ملوك الأطراف، ويذكر ابن العبري أن سبب عزله يرجع إلى خوف الناصر منه على نفسه، ولم يكتف بحرمانه فقط بل إنه اعتقله وضيّق عليه، ومال إلى أخيه الصغير الأمير علي[2]، ولما اضطر إلى إعادته إلى ولاية العهد والخطبة له بها سنة ٦١٨ هـ /١٢٢١م بسبب وفاة الأمير علي فقد حرص على أن يضعه تحت " الاحتياط والحجر لا يتصرف في شيء"، وقد ظلّ ولي العهد محبوساً حتى توفي أبيه حيث أخرجه قادة الدولة وبايعوه بالخلافة[3].

لقد طبّق الناصر هذه السياسة بحزم على وزرائه وكبار قادته منذ أول يوم تولى فيه الخلافة، ففي سنة ٥٧٥ هـ /١١٧٩م قبض على وزيره ظهير الدين أبي بكر منصور بن العطار الذي ولي وزارة أبيه، ثم نقله إلى التاج العتيق حيث قيّد ووكّل به، ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي في أواخر السنة المذكورة[4].

وفي كتاب مضمار الحقائق للأيوبي نستشف الأسباب التي دعت إلى نكبة ابن العطار ومقتله، فقوة شخصيته ومحاولته التحكم في الدولة على نحو ما كان عليه أمره مع الخليفة المستضيء، فقد أورد أن الناصر أرسل أستاذ داره ابن الصاحب يحمل أمره بإقطاع خادمه مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصري منطقتي لحف الجبل والبندنيجين[5] وما يجري معهما، فاستعظم ذلك الوزير ابن العطار، ولم يمتثل المراسم النبوية، فكان في جوابه ذلك التقدم بالقبض عليه ثم قتله[6].

وبعد ذلك استناب في الوزارة سليمان بن ساويرس ثم أقاله من منصبه بعد شهرين، وولّى مكانه محمد بن هبة الله البخاري وبقي في وزارته إلى أن توفي، ولا مبرر لنجاته من العزل إلا طاعته الكاملة

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٧٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٠٩.

(٣) ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت٦٨٥ هـ /١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول، ط٣، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت ١٩٩٢ ص٢٤٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥١-٥٢.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٢.

(٥) بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد، يشبه أن تعد في نواحي مهرجانقذق. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦ هـ /١٢٢٩م) ، معجم البلدان، ج١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩ ص٤٩٩.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٢-٥٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للخليفة، وقد استخلف الناصر بعده أبا الفتح صدقة بن أبي الرضا، فمكث في الوزارة ستة أشهر ثم عزله، مستوزراً محمد بن عبد الباقي بن الداريج الذي بقي في الوزارة نحواً من ثلاثة سنوات ثم تغير عليه لشموخه بأنفه وعزله من منصبه[1]، وولّى مكانه أبا المظفر عبيد الله بن يونس سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م ولقّبه جلال الدين، فخرج مقدّماً على جيوش الخلافة لقتال طغرلبك السلجوقي، وما لبث أن وقع في أسره بعد استبسال في القتال، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فرجع إلى بغداد ولم تطل مدّته فيها، وحين أسر استناب الناصر قاضي القضاة علي بن البخاري ثم عزله بعد شهور، ليستوزر مكانه أبا المعالي سعيد بن علي الأنصاري، وبعد أن أمضى في الوزارة سنة قام بعزله، ومات سنة ٦١٠ هـ /١٢١٣م حسب ما يذكر ابن الأثير[2].

وأوكل الوزارة مرّةً أخرى إلى أبي المظفر عبيد الله بن يونس، بعد أن خرج من أسر طغرلبك، ولكنه لم يبق فيها إلا بضعة أشهر ثم عزل فتولاها مؤيد الدين محمد بن علي القصاب، الذي قاد جيوش الخلافة وانتزع بها خوزستان وأصفهان وهمذان والري، ثم مات هناك بشعبان سنة ٥٩٢ هـ /١١٩٥م بعد أن أمضى سنتين في الوزارة، وكان الناصر قد استناب في غيبته ببلاد خوزستان ابنه أبا الفضل أحمد، فلما وصل نعي أبيه إلى بغداد عزل، واستوزر الخليفة قاضي القضاة أبا طالب علي بن البخاري مرة ثانية على رواية ابن الكازروني[3]، ثم عزل بعد سنتين، وولي نيابة الوزارة الحسن بن نصر بن علي المعروف بابن قنبر، الذي كان صدراً للمخزن ثم عزل بعد ثلاث سنين، وقبض عليه ثم أخرج من محبسه ميتاً سنة ٦٠٤ هـ /١٢٠٧م[4].

وكان شرف الدين بن قنبر هذا قد ولّاه الخليفة الناصر حجبة الباب، ثم ولي نيابة الوزارة، فاستغل منصبه في تحصيل الأموال لنفسه على وجه غير مشروع، وشيّد داراً في درب المطبخ من بغداد بلغت درجة كبيرة من الروعة، ثم ركبه الغرور فاشتد عسفه بالناس، فلما رفع أمره إلى الخليفة عزله[5].

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص٢٨٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٣.

(٣) الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧ هـ /١٢٩٨م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، تحقيق مصطفى جواد وسالم الآلوسي، بغداد ١٩٧٠ ص٢٤٩-٢٥١.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦١-٦٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٤.

(٥) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦١-٦٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعد ابن قنبر تولى ناصر بن محمد العلوي الرازي فأمضى فيها ثلاث سنين وبضعة أشهر، ثم رقي إلى مرتبة الوزارة فظل في منصبه سنتين وبضعة أشهر، تمكن خلالها من ناصية الأمور وأصبح صاحب السلطة العليا فيها، ثم قبض عليه سنة ٦٠٤ هـ /١٢٠٧م ونقل إلى دار طاشتكين في دار الخلافة ومعه أولاده وأهله وماله وذخائره، ولم يصادر الخليفة أي شيء من ممتلكاته لمكانته عنده[١]، وإن من أسباب عزله ما نسب إليه من الطمع في الخلافة، وادّعاء أحقيّتها بالنسب العلوي دون الناصر، وهو أمر لا يمكن للخليفة أن يتغاضى عنه، ويُذكر أن المكين القمي كاتب الإنشاء لابن مهدي وشى به عند الخليفة، وزعم له أنه يطمع في الخلافة بدعوى أنه علوي، وأنه يرسل الأموال إلى العجم في قواصر[٢] التمر إلى أهله بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكاً تكون وجهته بغداد[٣]، وحين كثر القول في ذلك شعراً ونثراً عزله الناصر[٤].

ثم يأتي بعد ذلك أبا البدر محمد بن أحمد بن أمسينا الواسطي صاحب ديوان الزمام، وبعد سنة وبضعة أشهر استاء الناصر منه وأمر باعتقاله، وأسندت نيابة الوزارة بعده إلى مكين الدين محمد بن محمد القمّي كاتب الإنشاء، ولقب مؤيد الدين وتمكّن في الدولة تمكناً تاماً، وكان أوحد زمانه في كل شيء، وبقي في الوزارة إلى أن توفي الناصر[٥].

وإن انتقلنا إلى وظيفة أستاذ الدار نجد أنه نالها أيضاً الكثير من العزل والتنصيب، فليس الأمر مقتصراً على الوزير أو ولي العهد، فقد قبض الناصر على أستاذ داره مجد الدين بن الصاحب حين استشعر منه بعض الخطورة على الدولة، فقد أصبح مجد الدين ينتقي للخليفة وزيره ورؤساء

---

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر د. ن، القاهرة ١٩٨٠ ص١٧٨-١٧٩.

(٢) مفردها القوصرة: وعاء من قصب للتمر. الأزهري، محمد بن أحمد (ت٣٧٠ هـ /٩٨١م) تهذيب اللغة، ط١، ج٨، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١ ص٢٨١.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٥٩-٦٠.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٤-٥٥.

(٥) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص٢٤٩-٢٥١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٥-٥٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دواوينه[1]، وأصبح شائعاً بين الناس مقولة أن أستاذ الدار قد تحكّم في دار الخلافة، بحيث لو أراد أن يعزل الخليفة لفعل[2].

وكانت الخطوة الأولى التي عملها الناصر أن تغاضى عن أعمال أستاذ الدار بقصد وعن عمد ولغاية منه، وهي أن هذه الخطوة هي من باب الاستدراج والتوطئة الضرورية الرشيدة لاعتقاله، والتخلص منه وبالفعل هذا ما قد جرى، فقد سنحت الفرصة له عندما وشى به إليه أبو المظفر عبيد الله بن يونس الذي كان صنيعة لابن الحاجب، فقد قبّح أفعاله لدى الخليفة، وحذّره من عاقبة أمره معه، فقبض عليه في ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م وقام بذبحه ومصادرة أمواله، وكان من ضمنها ألف ألف دينار[3]، ثم باشر الحكم بنفسه وقلّل إلى درجة كبيرة وواضحة بأهمية هذا المنصب.

ثم بعد ذلك أسند الناصر وظيفة أستاذ الدار بعد تخلّصه من ابن الصاحب إلى أبي المظفر عبيد الله بن يونس، ثم ما لبث أن عزله حين خشي منه الاستبداد، ثم عيّن أبا الفتح بن رزين في أستاذية داره، وعاد بعد قليل فعزله حتى لا يستأثر بالسلطة، وولّى مكانه بهاء الدين أبا نصر المبارك ابن الضحّاك ولقّبه عضد الدين[4].

وللقضاة نصيب من سياسة الناصر، فقد نجح الناصر في استعادة حق تولية القضاة وعزلهم من السلاجقة في أواخر عهدهم[5]، فقد ولّى أحمد بن علي بن هبة الله البخاري وظيفة أقضى القضاة، وذلك في سنة ٥٩٤ هـ /١١٩٧م[6]، وظلّ فيها حتى رمضان من السنة التالية، حيث شكّ الناصر في ولائه وعزله، وأسند قضاء القضاة ببغداد وسائر البلاد الإسلامية إلى أبي الفضل القاسم بن يحيى الشهرزوري في سنة

---

(١) سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت٦٥٤ هـ /١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، ج٨، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥٢ ص٣٨٦.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٢١.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٣٨٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٦-٥٧.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٥١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٧.

(٥) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ /١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط١، دار الكتب بيروت، لبنان ١٩٩٢ ص٢٢٣.

(٦) ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت٦٧٤ هـ /١٢٧٥) الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٤ ص١١٣-١١٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥٩٥ هـ /١١٩٨م[١]، ثم عزله سنة ٥٩٨ هـ /١٢٠١م حين طلب منه ذلك، وعيّن أبا الحسن علي بن عبد الله بن سلمان الحلّي، ثم أعرض عنه وعزله تأديباً له سنة ٦٠٠ هـ /١٢٠٣م عندما ثبت أنه أخذ رشوة[٢]، وعيّن مكانه في القضاء عماد الدين أبو القاسم عبد الله بن الدامغاني، وظلّ في القضاء نحواً من ثماني سنين فلما ظهر منه تسلّط لطول بقائه في المنصب عزله سنة ٦١١ هـ /١٢١٤م وقلّد القضاء أبو المناقب محمود الزنجاني، ولكنه كالعادة دائماً ارتاب في أمره فعزله وأسند هذا المنصب لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان، الذي ظلّ قائماً في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥م[٣].

ولم تسلم إمارة الحج من تدخلات الناصر فقد حبس سنة ٥٨٨ هـ /١١٩٢م الأمير طاشتكين أمير الحج، لتفريطه في أمرين قدّر الناصر أنهما يمسّان سيادة الدولة، ويهدّدان أمن الخلافة، الأول هو التقصير في القتال عندما سار مع جيش الناصر لمحاربة طغرل السلجوقي سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م[٤]، أما الثاني فخو اتّهامه بمراسلة السلطان الأيوبي صلاح الدين، وسعيه لأن يكون واحداً من أمرائه وتخلّيه عن خدمة الخليفة الناصر[٥].

لقد حرص الخليفة الناصر على ضبط الأمور في العراق، وذلك إمعاناً في توطيد سلطة الخلافة العباسية، فكان دوماً هو الذي يتابع الأمور ويقف على مجرياتها بنفسه، وكان أيضاً حريصاً على متابعة أحوال أهل بغداد ومعرفة حقيقة الأوضاع بها، وكان كثيراً ما يخرج في الأسواق دون أن يفصح عن نفسه، وكان يخرج بنفسه كما يقول ابن جبير في ذلك: " على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية الا اشتهاراً"[٦]، ويتنكر في الأسواق بلباس زي العجم، وأحياناً في زي الأتراك، وأحياناً أخرى في زي الفقهاء[٧].

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص١١٤.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص١١٥.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص٢٠٧-٢٠٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٨.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤١٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١١٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٩.

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٢.

(٧) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١١٩-١٢٠-٢٣٠-٢٣٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٥٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن المؤكد أن الناصر استعان على ضبط الأمور في العراق بمجموعة كبيرة من أصحاب الأخبار الذين توزعوا في معظم أرجاء بغداد، بدءاً بالوزراء وانتهاءً بين العامة في الدروب والأسواق، حتى البيوت، وكذلك نجد أصحاب الأخبار في دواوين ملوك الأطراف الذين كانوا يتبعون نظرياً للخلافة، وكذلك المستقلين عن الخلافة، لمعرفة أحوالهم الظاهرة والمستترة، وقد بلغوا الغاية في توصيل الأخبار الدقيقة للناصر[١].

ومن يتتبع تاريخ الخلفاء العباسيين يجد أنه لم يسبق لأحد من الخلفاء أن بثّ العيون والجواسيس بمقدار ما بثّ الناصر[٢]، وكل ذلك في سبيل توطيد أركان الدولة، فكان من جواسيسه العلماء الذين خوّلهم مهاماً إضافية بالإضافة إلى ما لديهم من سلطات لاستخلاص المعلومات التي يريدونها واستخلاص أسرارها، ويذكر سبط ابن الجوزي أن الفقيه الحنبلي إبراهيم بن علي بن محمد بن بكروس (ت٦١١ هـ /١٢١٤م) أصبح صاحب خبر، بباب النوبي، وطرح الثوب الواسع " لباس العلماء"، ولبس المزند والحديد " لباس المخبرين"، وتقلد السيف وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة في الخشب ورماهم في دجلة، وما كان يأخذ في مسلم لومة لائم [٣].

ومن العيون من كان موظفاً بمنصب كبير، يقول الأيوبي في كتابه مضمار الحقائق وسر الخلائق عن تولية أحد الموظفين: " تقدم إلى أبو السعود بن جعفر أن يكتب في كل يوم مطالعة إلى أستاذ الدار بجميع ما يجري في المجلس من قليل وكثير فكان حاجب حجاب[٤] وصاحب خبر وكان أستاذ الدار قد

---

(١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) نكث الهميان في نكت العميان، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧ ص٢٢٥.

(٢) من الخلفاء الذين عرفوا بعنايتهم بالجواسيس والعيون الخليفة المأمون، فقد روي أنه كانت له ألف وسبعمائة عجوز يطالعنه كل ليلة بأخبار الدولة. الحلبي، علي بن ابراهيم بن أحمد (ت١٠٤٤ هـ /١٦٣٥م) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ط٢، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧ ص٢٦٤.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٧٠-٥٧١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٦١.

(٤) حاجب الحجاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب؛ وعادته أن يكون مقدم ألف ؛ وهو الرتبة الثانية من النائب؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل، ولا يقف كما يقف حاجب الحجاب بين يدي السلطان بالديار المصرية، وإذا خرج النائب عن دمشق في مهم أو غيره، كان هو نائب الغيبة عنه، وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره، ويقوم بأمر البلد إلى أن يقام نائب آخر. القلقشندي، أحمد بن علي (ت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تغير على ابن البخاري النائب لكونه كان يسمع عنه أنه يخلو بابن الكرخي ويحدثه وأنه يذكر له أشـياء يقولها للخليفة....." [1]، ومن الموظفين كذلك الذين كانوا عيوناً وجواسـيس للناصر عمرو العلي بن النشّال الهاشمي، الذي كان يتقلد منصب حاجب منطقة وحاجب منبر، يقول الأيوبي عنه : " ثم أحضر ابن النشال وأجلسه بين يديه وصار موضع ابن الكرخي وعلم الناس أن الخليفة قد تعصب لهذا ثم تقدم إلى هذا المذكور(ابن النشال) أن يكتب مطالعة تشتمل على أحوال الديوان سراً بحيث لا يعلم أحد وكبر عند الناس بهذه الحال...." وكان هذا سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٤م [2]، وفي بعض الأحيان يكون المخبر من السرية بحيث لا يعلم به إلا أستاذ الدار، يقول الأيوبي: " وفيها وضع أستاذ الدار من نقل إلى الخليفة أن أبا الحسن بن الكرخي يسمج ويقول عنه أشياء ويذكر جميع ما يكون فيه من أحوال تجري في خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك في الأسـواق وأن الدليل على صـحة ما نقل عنه أن الخطير البزاز قد حكى عنه جميع ذلك فتقدم الخليفة بإحضـار الخطير البزاز وسـمع كلامه فتقدم الخليفة بمنع ابن الكرخي من الدخول إليه"[3]، وبهذه الإجراءات استطاع الناصر أن يُلم بكل كبيرة وصغيرة في الدولة، وأن يعرف ما يدور في مجالس كبار الموظفين وصغارهم، وما يجري في بغداد والمناطق الأخرى، حتى البيوت تجسّس عليها، فقد كان الرجل يخشى أن يطّلع الناصر على ما يدور بينه وبين زوجه من نجوى حتى في جنح الظلام[4]، فبهذا الأمر قضى على مكامن الأخطار وانحسـمت مادة الفتن، واسـتتب الأمن في أرجاء البلاد.

المبحث الثالث: سياسته مع المعارضة

الباطنية:

بداية لا بد من التعريف بالباطنية، فهي فرقة من الإسماعيلية الذين ينسبون الإمامة لإسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق، وفي رأيهم أن الأرض لن تخلوا من إمام حي قائم إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، ولهم آراء شتى منها أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وأشهر ألقابهم

٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١ ، ج٤، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٧ ص١٩٢.

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٦٩.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٨٤.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٨٣.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٧٤-٤٧٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، وهم يلقبون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية، ويلقبون بخراسان التعليمية والملحدة، ويقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهم الشخص، وقد خلط الباطنية القدماء كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج، ومن آرائهم نفي الصفات؛ لأن إثباتها الحقيقي يقتضي شركة بين الله تعالى وسائر الموجودات وذلك تشبيه، ولهم دعوة جديدة تزعمها الحسن بن محمد الصباح[١] في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٢].

ونشير هنا إلى أن السلاجقة استعملوا الباطنية للتخلص من بعض الخلفاء في إطار صراع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، فقد قتلوا الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٩ هـ /١١٣٤م[٣]، وقتلوا أيضاً ابنه الخليفة الراشد سنة ٥٣٢ هـ /١١٣٧م[٤].

ونال الوزراء نصيب من الاغتيالات التي نفّذتها فرقة الباطنية، فقد اغتالوا سنة ٥٧٣ هـ /١١٧٧م ابن رئيس الرؤساء عضد الدين أبا الفرج محمد بن عبد الله المظفر وزير الخليفة المستضيء والد الناصر، وقد ذكر ابن الجوزي أن هذا الوزير خرج في موكب كبير وأبّهة عظيمة يريد الحج، " فلما وصل باب قطفتا[٥] خرج رجل كهل فقال يا مولانا أنا مظلوم وتقرب منه فزجره الغلمان

---

(١) الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، مولده في مرو، تتلمذ لأحمد بن عطاش (من أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي) ثم كان مقدم الإسماعيلية بأصبهان، ورحل منها، وطاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالا وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته، فعاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعياً إلى المستنصر، ثم استولى على قلعة ألموت (Alamout من نواحي قزوين) وطرد صاحبها (سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أن توفي فيها سنة (٥١٨ هـ /١١٢٤م). الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨ هـ /١٣٤٧م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط١، ج١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٣ ص٥٠٠.

(٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت٥٤٨ هـ /١١٥٣م) الملل والنحل، ج١، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤ ص١٩٠.

(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط١، ج١٧، دار الكتب بيروت، لبنان ١٩٩٢ ص٣٠١.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٧، ص٣٣٢.

(٥) محلة كبيرة ذات أسواق، بالجانب الغربي من بغداد، مجاورة لمقبرة الدير التي بها قبر معروف الكرخي، بينها وبين دجلة أقل من ميل، وهى مشرفة على نهر عيسى، وتتصل العمارة منها إلى دجلة.. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقال الوزير دعوه فتقدم إليه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابة ووقعت عمامته فغطى رأسه بكمه وبقي على قارعة الطريق....." [1]، كما ضرب حاجب الباب ابن المعوج بذات السكين عندما جاء لنجدة الوزير فأرداه قتيلاً[2]، وبهذه الواقعة انتقل خطر الباطنية إلى الداخل في بغداد وأصبح قريباً من الخليفة.

بدأت العلاقة بين الناصر والخليفة بشكل عداء سافر، فهم ذاتهم الذين اغتالوا أسلافه، وحاولوا قتله، وسعوا في ذلك بحيلة ماكرة، فأسندوا مهمة الاغتيال لمرأة تعرف بالخليعة، وكانت هذا المرأة صاحبة نفوذ عند الأمير حسام الدين غرغلي، وكان زوجها أيضاً مهمته تقوم على حمل المشاعل أمام موكب الخليفة في مواكب الأعياد والمناسبات ويسمّى صاحب هذه المهمة الرّكابي، وهي وظيفة مناسبة لإتمام عملية الاغتيال، وقد أحضرت هذه المرأة عندها جماعة من حلب من الاسماعيلية، وكلّفتهم بقتل الخليفة وأستاذ داره، إلا أن عيون الناصر وجواسيسه كشفوا أمرها، فألقي القبض عليها، وحملت في قارب إلى البصرة، وتقدم الخليفة بغلق باب الأمير حسام الدين غرغلي وضربوا فيها مسامير بحيث لا تفتح وكذلك فعلوا بالمحارق من أعلى الدار وضربوا فيها مسامير بحيث لا يصعد أحد إلى سطح الدار ووكل أيضا بالدار جماعة من الفراشين[3]، إذ لا بد أن الأمير حسام الدين غرغلي كان ضالعاً في هذه المؤامرة وإلا لما أقدم الخليفة على ذلك.

ورأى الناصر منذ ذلك الوقت أن يولي هذه الطائفة اهتماماً واضحاً وكبيراً، فأرسل وزيره فخر الدين أبي البدر محمد بن أحمد الواسطي صدر ديوان الزمام ليقضي على فتنتهم عندما وصلته أخبارها من واسط، فقد جاءت الأخبار من بغداد عام ٦٠٠ هـ /١٢٠٣م بأن الناس في واسط نهضوا على قوم من الباطنية فقتلوهم وأحرقوهم، ونهبوا دورهم، كما قتلوا زعيمهم ابن عصية الذي كانت داره معقلاً لهم في واسط، وقد قتل من هذه المدينة في الفتنة ثلاثون رجلاً، ونجح وزير الناصر في حسم مادة الفتنة وتسكينها، بعد أن حبس جماعة من المشاغبين[4].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص٢٤٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص٢٤١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٦.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٩٢-٩٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٧.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص١١٨-١١٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٧-٨٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلا أن هناك أمر داخلي تغيّر عند الباطنية، وأثّر على سياستهم الخارجية، ففي سنة ٦٠٧ هـ /١٢١٠م أصبحت قيادتهم بيد زعيم جديد هو جلال الدين حسن بن محمد بن الحسن الصباح، فقد أرسل إلى الخلفاء وإلى ملوك الأطراف يعلن أن الله قد هداه إلى الحق، وأنه عاد مسلماً سنياً، وقد تبرّأ مع جماعته من الباطنية وأفعالهم، وبنوا المساجد والجوامع وأقاموا الجمع والجماعات، وصاموا رمضان وانتهوا عن المحرمات، واتبعوا جميع شرائع الإسلام، حتى يُظهر قائدهم أنه جاد فيما أعلن، أرسل أمه إلى مكة لأداء فريضة الحج، فاحتفى بها الخليفة الناصر لدى وصولها بغداد، كما أرسل جلال الدين حسن إلى فقهاء قزوين القريبة من مقره في ألموت[١]، يطلب إليهم مراجعة كتبه التي يقتنيها، ويفوّضهم في إحراق ما يرونه منافياً لتعاليم الإسلام، كما طلب من الخليفة الناصر وأمراء المسلمين أن يبعثوا إليه بعض الفقهاء والقضاة ليفقّهوا رجاله في أصول الشريعة الإسلامية، فلما حضروا عنده أحرق أمامهم كتب آبائه وأجداده، وليؤكد للجميع صدق نواياه وحسنها أرسل إلى الناصر من يقدّم بين يديه طاعته وخضوعه[٢].

وقد كانت هذه الخطوة من الباطنية مثلجةً لصدر الناصر، لأنه وجد في دخولهم تحت طاعته قوةً للخلافة العباسية، وراحة للمسلمين من عدوانهم وفتنتهم، واستتباباً للأمن في البلاد، وبهذا استطاع جلال الدين حسن أن يكسب ثقة الناس، وأن يحظى بثقة الخليفة، وبالمقابل أكرمه الخليفة وخلع عليه الخلع السنية، وقرّبه منه كثيراً[٣].

يعزو البعض هذا التغيّر في سياسة الباطنية إلى تأثرهم بشخصية الناصر لدين الله، ومعالجته الحازمة للأمور، والدليل على ذلك ما فعله هؤلاء القوم حين بعثوا للناصر مفاتيح بلادهم وقلاعهم،

---

(١) قلعة ألموت: معناها بالديلم: تعليم العقاب، وقال أبو الفداء: إن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا على الصيد فقعد على موضع ألموت، فرآه حصينا، فبنى عليه قلعة وسماها أله الراموت ومعناه بلسان الديلم: تعليم العقاب. ويقال لذلك الموضع وما يجاوره: طالقان. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت٧٣٢ هـ /١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر، ط١ ، ج٢، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٩٩٠ ص٢١٤.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٥٥. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٧٨-٨١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٨.

(٣) براون، إدوارد جوانفيل، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية أمين الشواربي، مصر ١٩٥٤ ص٥٧٨-٥٧٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذهباً مضروباً باسمه، وطيف به على جوانب بغداد[1]، بينما يعزو البعض الآخر هذا التغيّر إلى أن جلال الدين حسن زعيم الباطنية شعر بما أصاب طائفته من ضعف، لدرجة أنها أصبحت لا تستطيع المقاومة الشعور الإسلامي العام لها، ناهيك عن القوى الإسلامية المناوئة لنشاطها[2].

وفي هذا المقام يذكر ابن الأثير أن الخليفة الناصر قد نجح بالاستفادة من الباطنية، وتخلص من بعض خصومه السياسيين، وهذا راجع لقوة شخصيته وحزمه، ففي سنة ٦١٢ هـ /١٢١٥م عندما قتل مملوك الناصر منكلي عامله إيتغمش، وأرسل ينكر ذلك عليه، طلب من جلال الدين حسن مساعدته في قتال هذا المملوك، مقابل بعض الإقطاع، وقد وفى الخليفة له بما وعده به عندما تخلص من منكلي[3].

واستعان الناصر مرة أخرى بزعيم الباطنية على استخلاص بعض بلدان العراق العجمي من أيدي الخوارزمية، ولما تحقق للخليفة العباسي ما أراده انقطعت الخطبة للأمير الخوارزمي من العراق [4]، إلا أن هذا الوفاق لم يدم طويلاً وسرعان ما سقط هذا التحالف بين الخلافة العباسية وبين الحركة الإسماعيلية الباطنية، فقد تآمر على جلال الدين بعض أتباعه الذين لم يرضهم خروجه على تعاليم الباطنية الأوائل، فوضعوا له سماً في الطعام أودى بحياته سنة ٦١٨ هـ /١٢٢١م، وخلفه على زعامة الإسماعيلية ابنه علاء الدين محمد الثالث[5]، الذي نهج سياسة الاغتيال والقدر، مما دفع الخليفة مرّة أخرى إلى أن يتّخذ من الإسماعيلية الباطنية عدواً، ويضع نصب عينيه القضاء عليها[6].

الأمراء

---

(١) كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط١، ج١، بغداد ١٩٦٢ ص١٧٨.

(٢) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، دار الفكر العربي، مصر ١٩٤٩ ص٨٥-٨٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٩٠-٢٩٢.

(٤) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص٣٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٧١.

(٦) براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص٥٨٠-٥٨٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٩٠-٩١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هناك بعض الأمراء الذين خرجوا على الخليفة بالمناطق التي حكموها، ولكن الناصر استطاع أن يعيدها لحظيرة الخلافة العباسية، وكان في أغلب الأحيان لا يخرج إلى الحرب بنفسه، خوفاً أن يلقى المصير ذاته الذي لقيه الخلفاء الذين سبقوه، فمثلاً استغل الخلاف الذي وقع بين الأتابك[١] عز الدين مسعود صاحب الموصل، ونائبه الأمير مجاهد الدين قايماز الذي كانت بيده إربل[٢] وشهرزور[٣]، ودقوقا[٤] وجزيرة ابن عمر[٥]، فحاصر بجنده أولاً دقوقا، ثم استعادها لتعود تابعةً للخلافة سنة ٥٧٩ هـ /١١٨٣م[٦].

واسترجع الخليفة أيضاً تكريت[٧] في شوال سنة ٥٨٥ هـ /١١٨٩م إذ سنحت له الفرصة وانتهزها حين قُتل صاحبها الأمير عيسى بوساطة اخوته الذين ملكوا القلعة بعده، فبعث إليهم الجند وظلّ محاصراً لها حتى أعلنت استسلامها، وبعد ذلك دعاهم إلى بغداد ومنحهم الإقطاعات[٨].

---

(١)الأتابك لفظ تركي يتألف من مقطعين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقة على أحد الأمراء الكبار الذين يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير، وفي أيام المماليك بمصر أطلق على مقدم العسكر أو القائد العام للجيش ولذلك سمي أتابك العسكر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية ١٩٧٨ ص١٢٢-١٢٥.

(٢)إربل مدينة بين الزابين، لها قلعة حصينة لم يظفر بها التتر، مع أنهم ما فاتهم شيء من القلاع والحصون، بها مسجد يسمى مسجد الكف، فيه حجر عليه أثر كف إنسان، ولأهل إربل فيه أقاويل كثيرة. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت د.ت ص٢٩٠.

(٣)شهرزور كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان. بها قرى ومدن. أهلها أكراد قطاع الطريق. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٣٩٧.

(٤) دقوقا مدينة بين إربل وبغداد. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

(٥) جزيرة ابن عمر بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٣٨.

٦) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص٢٤٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٠.

(٧) تكريت بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٨.

(٨) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص٢٤٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي أواخر السنة ذاتها ٥٨٥ هـ /١١٨٩م بعث الناصر بجيش إلى حديثة[١] وعانه[٢]، وبعد أن لقي مقاومة عنيفة من المتولّين عليها، استطاع استعادتها إلى حضانة الخلافة العباسية في ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ /١١٩٠م، ونذكر في هذا المقام أن أصحابها لم يقوموا بتسليمها إلا بعد أن قلّت لديهم المؤونة، واشترطوا مقابل تسليمها إقطاعاً، فأقطعهم الخليفة ما شرطوا عليه من إقطاع[٣]، وتستمر سياسة الخليفة الناصر في إطار استعادة أملاك الخلافة العباسية المفقودة، ففي سنة ٥٨٩ هـ /١١٩٣م استولى على إحدى قلاع خوزستان، تمهيداً لاستعادة كامل الإقليم[٤]، وكان للوزير ابن القصاب مؤيد الدين محمد بن علي، دراية واسعة بأحوال خوزستان[٥]، من واقع تجاربه عندما كان والياً عليها، فعندما تسلّم نيابة الوزارة في بغداد سنة ٥٩٠ هـ /١١٩٣م أشار على الناصر بأن يكون على مقدمة الجند إلى خوزستان للسيطرة عليها وإعادتها للخلافة العباسية، فسمح له بذلك، ويبدو أن الظروف كانت سانحة والفرصة مواتية لذلك، فقد توفي صاحبها، واختلف أولاده من بعده[٦]، كما قوّت هذه الظروف من عزيمة الخليفة الناصر، فجهّز الجيوش، وبعثها إليها بقيادة الوزير المذكور، وفي البداية دارت المراسلات بين جيش الخلافة وبين أهل هذه الولاية، وحين لم تؤت هذه المراسلات أية نتيجة، حصل القتال بين الطرفين، واستطاع جيش الخلافة أن يسيطر على مدينة تستر[٧] في المحرم من سنة ٥٩١ هـ /١١٩٤م، بالإضافة إلى أنه استعاد غيرها من القلاع والحصون[٨]، وكان الأمير قتلغ إينانج بن البهلوان ومعه عدد من الأمراء قد جاؤوا إلى الوزير ابن

---

١) حديثة الموصل وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى، وفي بعض الآثار أن حديثة الموصل كانت هي قصبة كورة الموصل الموجودة الآن وإنما أحدثها مروان بن محمد الحمار. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٠.

(٢) عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٧٢.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٠١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨١.

(٤) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٥) خوزستان اسم لجميع بلاد الخوز، وهو نواحي أهواز، بين فارس وواسط والبصرة وجبال اللّوز المجاورة لأصبهان. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٤.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٢٩.

(٧) تستر أعظم مدينة بخوزستان اليوم، وهو تعريب ششتر ، ومعناه التفضيل في الطيب والنزهة. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٩.

(٨) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٤٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القصّاب وهو مقيم على مدينة ميسان[١]، وكانوا قد هُزموا أمام جيش خوارزمشاه تكين، في موقعة جرت بينهم وبينه عند زنجان[٢]، وقد استقبلهم الوزير وأحسن وفادتهم وأكرمهم، وأعطاهم الخيول والخيام وكل ما احتاجوا إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، وقادهم إلى همدان حيث استطاعوا هزيمة الجيش الخوارزمي منها ومن الري[٣] ودامغان[٤] وبسطام[٥] وجرجان[٦] وغيرها من المناطق[٧].

غير أن الأمير قتلغ إينانج بن البهلوان تغير هو والأمراء الذين معه على الوزير بعد أن وجدوا أن بلاد خوزستان قد خلت من الجيش الخوارزمي، فطمعوا في البلاد التي استعادها الوزير للخلافة العباسية، فعجّلوا في المسير إلى مدينة الري، وساعدهم على الدخول تعاون الشيعة معهم، فقد فتحوا لهم أبواب محلّاتهم، ولكن جند الخلافة العباسية أسرع وضرب عليه حصاراً، واستطاع هذا الجيش في النهاية من دخول الري، وانتهبها بعد أن فرّ عنها الأمير قتلغ بعد أن كان قد فعل بها الأفاعيل[٨].

---

(١) ميسان اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان، وفي هذه الكورة أيضا قرية فيها قبر عزير النبي، عليه السلام. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٢.

(٢) زنجان بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون زنكان بالكاف، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والحديث. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٥٢.

(٣) الري مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات، قصبة بلاد الجبال، على طريق السابلة، قال الإصطخرى: كانت أكبر من أصفهان بكثير، تفانى أهلها بالقتال في عصبيّة المذاهب حتى صارت كأحد البلدان. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١٦.

(٤) دامغان بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس، قال مسعر بن مهلهل: الدامغان مدينة كثيرة الفواكه وفاكهتها نهاية، والرياح لا تنقطع بها ليلاً ولا نهاراً، وبها مقسم للماء كسروي عجيب. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٣.

(٥) بسطام بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين، قال مسعر بن مهلهل: بسطام قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٢١.

(٦) جرجان مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١١٩.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨١-٨٢.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٢-٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعد ذلك اتّجه الأمير قتلغ ومعه الأمراء إلى مدينة آوة[1]، إلا شحنتها منعهم من الدخول، فاتّجه نحو مدينة كرج[2]، ونزلوا على مدينة دربند[3]، فهزمهم الوزير ابن القصّاب عندها بعد قتال صعب، تمكّن الأمير قتلغ من أن ينجو بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها[4].

وكان الأمراء البهلوانية والمماليك قد أمروا عليهم في هذه الفترة التي نحن بصددها شخصاً من سادتهم يدعى " كوكجا"، واستطاعوا أن يستولوا على الري وما حولها من البلاد، ثم اتجّهوا إلى أصفهان لطرد الخوارزمية منها، وإذ هم على مقربة منها، وصلهم خبر أن الجيش العباسي قادم على أصفهان بقيادة سيف الدين طغرل، فأسرع كوكجا وأرسل على الفور من يقول لقائد جيش الخلافة العباسية أنه تحت خدمته وأنه سيدخل في طاعته، لقاء بعض من إقطاع المدن التالية الري وجوارها، وقم[5] وقاشان[6] وما ينضم إليها من حد مزدغان، وبالمقابل يكون للخليفة أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين، أجيب إلى ذلك، وكتب له منشور بما طلب، وأرسلت له الخلع، فعظم شأنه، وقوي أمره، وكثرت عساكره، وتعظم على أصحابه، وذلك في أواخر السنة ٥٩١ هـ /١١٩٤م[7].

أما بلاد خوزستان فقد ظلّت فترة طويلة من الزمن تتبع للخليفة العباسي الناصر، يعيّن عليها من يشاء من الولاة، ولكن هؤلاء الولاة أخذوا يتمرّدون عليه ويعلنون انفصالهم عنه، فكان لزاماً عليه أن يعمل كل ما بوسعه لوقف هذا التدهور، فقد كثرت الإمارات الصغيرة التي أقامها بعض الولاة والقادة الطموحين، فمثلاً في سنة ٦٠٦ هـ /١٢٠٩م أبدى والي خوزستان المملوك سنجر (مملوك الخليفة الناصر)

---

(١) آوة قرية بين زنجان وهمذان. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٨٣.

(٢) الكرج مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة، وأول من مصرها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وطنه. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦.

(٣) هي ذاتها باب الأبواب وهي مدينة على البحر، بحر طبرستان وهو بحر الخزر، وربما أصاب البحر حائطها، وفى وسطها مرسى السّفن، قد بنى على حافتي البحر سدّين وجعل المدخل ملتوياً، وعلى هذا الفم سلسلة فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلا بأمر، وهى فرضة لذلك البحر، وسمّيت باب الأبواب لأنها أفواه شعاب في جبل القبق. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٠٣.

(٤) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٩١-٩٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٣.

(٥) قم مدينة بأرض الجبال بين ساوة وأصفهان، وهي كبيرة طيبة خصبة مصرت في زمن الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ هـ /٧٠٢م. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٤٢.

(٦) قاشان مدينة بين قم وأصفهان. أهلها شيعة إمامية غالية جداً. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٣٢.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نزعة في الاستقلال وبعضاً من التغيّر في الطاعة، لذلك بعث إليه الناصر يدعوه بالقدوم إلى بغداد، إلا أن سنجر رفض ذلك، عندئذ لجأ الخليفة إلى خيار القوة، فبعث مؤيد الدين القمي نائب الوزارة، وعز الدين نجاح الشرابي خاص الخليفة، بجيش إلى خوزستان،

وأمرهما بإخراج سنجر عنها، وإرجاعه رغماً عنه إلى بغداد[1]، وبالفعل تمكن جيش الخلافة العباسية من السيطرة على خوزستان، وإعادة المملوك المتمرد مرغماً مأسوراً إلى بغداد، وذلك في محرم سنة ٦٠٨ هـ /١٢١١م، وأقام الناصر مكانه المملوك ياقوت، ولكن عفو الخليفة وسماحته كانت أكبر من تمرد سنجر، فعفى عنه بعد اعترافه بذنبه[2]، وهكذا فإن الخليفة الناصر قد عمل كل ما بوسعه من أجل إرجاع الخلافة إلى سابق عهدها، وقد نجح بالفعل في ذلك.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨ هـ /١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط١، ج٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ ص٦٥٧.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص٢٦٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٨٣-٨٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

الخليفة الناصر لدين الله في المصادر التاريخية

المبحث الأول : المصادر التي جاءت على ذكر الناصر

هناك الكثير من المصادر التاريخية التي تطرقت لحياة الخليفة الناصر وإنجازاته، ومنها من اختص بفترته أعني منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأول هذه المصادر هو كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق لمؤلفه الملك المنصور[١]، ويعد هذا المصدر سجلاً دقيقاً للحياة السياسية في بغداد خاصة وفي العراق عامة، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه قد شارك في صنع كثير من الأحداث السياسية التي كتب عنها، أو عاصرها معاصرة كاملة، وبخاصة حروب صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، لأن صلاح الدين كان من أبرز أمراء تلك الفترة وأنشطهم على الصعيد العسكري، ومن الجدير بالذكر أن أبو الملك المنصور هو عمر وهو ابن أخي صلاح الدين، وقد وضع كتابه هذا في عشر مجلدات بالأصل[٢]، جمع فيه جملةً من التواريخ، وأسماء من ورد عليه وأقام عنده"، كما يقول ابن شامه[٣].

ومما اشتمل عليه من حوادث التاريخ، ويمتاز بالأصالة والجدة كلامه الدقيق المفصل عن حملة قراقوش المظفري على بلاد المغرب[٤]، بالإضافة إلى حديثه عن كثير من الأمور السياسية، فقد تطرق للخليفة الناصر وبلاطه وسياسته وعن الكثير من رجال دولته، وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولكن للأسف فإن هذا الكتاب لم يبق منه سوى جزء صغير، يتضمن حوادث السنوات ما بين ٥٧٥-٥٨٢ هـ /١١٨٠-١١٨٦م، وهذا الكتاب درس الأحوال السياسية الداخلية في العراق

---

(١) محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه الأيوبي، المنصور ابن المظفر، صاحب حماة، وأحد العلماء بالتأريخ والأدب، سمع الحديث في الإسكندرية، وصار إليه ملك حماة بعد أبيه، فكان في خدمته بها قريب من مئتي عالم. وكانت له مع الفرنج حروب، صنف (مضمار الحقائق وسر الخلائق) و (طبقات الشعراء) و (درر الآداب ومحاسن ذوي الألباب) وجمعت أشعاره في (ديوان) وبنى (جسر المراكب) في حماة، ومن آثاره فيها (سوق المنصورية)، و (حمام السلطان) توفي في قلعتها سنة ٦١٧ هـ /١٢٢١م. الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) فوات الوفيات، ط١، ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣ ص١٢.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٢(مقدمة المحقق).

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٤٦.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٣٤-٥٣-٥٤-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في السنوات الأولى من عهد الخليفة الناصر، وكذلك علاقة الخليفة الناصر بالسلطان صلاح الدين الأيوبي[1].

ومن المصادر التي تطرقت للناصر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير[2]، وهو أعظم ما وصل إلينا من كتب التاريخ العام التي ألّفت باللغة العربية، فقد اشتمل على تاريخ العالم منذ مبدئه حتى سنة ٦٢٨ هـ /١٢٣٠م أي قبل وفاة ابن الأثير بعامين، وأبرز ما يميز هذا الكتاب محاولة المؤلف عرض حقائق التاريخ عرضاً مبسطاً ومترابطاً وذلك بانتهاجه منهج الموضوع الواحد في إطار حولي، ويعد الكامل مصدراً أولياً يُعتمد عليه في دراسة التاريخ، وبخاصة ما يتصل بالغزو المغولي للعالم الإسلامي الذي حدث في مستهل القرن السابع الميلادي/ الثالث عشر ـ الميلادي، بل وكل ما يتعلق في الفترة ما بين ٥٥٥-٦٣٠ هـ /١١٦٠-١٢٣٣م، أما كتابه الآخر فهو التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ومن خلاله يمكن دراسة علاقة الخليفة الناصر مع أتابكة الجزيرة والموصل، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن المؤلف كان قد ولد في الموصل، وبالتحديد في جزيرة ابن عمر، ونشأ بها، وكان هو وأسرته على علاقة وثيقة بأتابكة الموصل، وتولوا لهم بعض المناصب الرسمية، ونالوا عطفهم ورعايتهم، وقد عبّر ابن الأثير عن وفاء أسرته لبيت زنكي أتابك الموصل بهذا الكتاب، وإهدائه إلى الملك القاهر عز الدين بن مسعود ت٦١٥ هـ /١٢١٨م[3].

وفي كتاب الباهر نجد دراسة وافية عن قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكي، وظل يتتبع الأحداث حتى وفاة نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود سنة ٦١٧ هـ /١٢٢٠م، غير أنه وجّه عنايته إلى سيرة عماد الدين زنكي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ / فقدّم مغلومات هامة ومفصلة عن الأحداث في عهده قلّما نجدها في أي مصدر آخر، واتّسم حديثه عنه بالتحيّز والمغالاة في مدحه، وإغفال عيوبه وأخطائه، وقد اتبع في كتابه هذا منهج التسلسل الزمني للأحداث التاريخية الغزيرة الموثقة مع عمق في التفكير ودقة في الاستقصاء والبحث.

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٥١.

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي بها. من تصانيفه الكامل، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ، واللباب وتاريخ الدولة الأتابكية والجامع الكبير توفي سنة ٦٣٠ هـ /١٢٣٣م. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٦٨١ هـ /١٢٨٢م) وفيات الأعيان، ج٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٤ ص٣٤٨.

(٣) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص: ٢-٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن المصـــادر التي تطرقـت لحيـاة الخليفـة النـاصر كتـاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي[1]، وقد تناول في كتابه تاريخ العالم منذ بدايته، وشـــمل كثيراً من دقائق الســـياســـة في العراق وبخاصة في حاضرة الخلافة بغداد، كما تناول الكثير من المظاهر الاجتماعية والمسائل الاقتصادية، وترجم لعدد من المشاهير والأعلام.

وهناك أيضـاً كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي[2]، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه عاصر معظم أحداث العراق والمشرـق التي كتب عنها، كما كان شـاهد عيان لبعضـها الآخر، في الفترة التي قضـاها ببغداد والعراق، وقد أرّخ في كتابه للخليقة منذ نشـأتها، وانتهى فيه بحوادث السـنة السابقة لوفاته، وقد تطرق لعلاقة الخليفة الناصر بأتابكة الموصل، وبعض مظاهر النشاط العقلي في عدد من بلدان العراق التي اجتازها في طريقه إلى دمشق.

ومن المصادر التي أرّخت للناصر ولما جرى في عهده من أحداث كتاب الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير لابن الساعي[3]، وبلغ بكتابه إلى سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م وهو تاريخ سقوط بغداد على يد المغول، وفي كتابه هذا نجد تفصيلاً دقيقاً لفتن الطوائف الدينية في بغداد، وسياسة الخليفة الناصر تجاهها، فضلاً عن سياسته العامة المتعلقة بتدبير أمور الدولة، وتسيير دفة الحكم فيها، وتناول الكتاب التعريف بعدد من العلماء والفقهاء والأدباء، وهذا المصدر تطرق لنظام الفتوة الذي اعتمده الناصر اسلوباً لتوثيق علاقته بالأمراء داخل الدولة، وأمراء الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشـــي البغدادي، علامة عصـــره في التاريخ والحديث، كثير التصـــانيف، مولده ووفاته ببغداد، ونســـبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها، له نحو ثلاث مئة مصنف، (ت٥٩٧ هـــ /١٢٠١م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص١٤٠.

(٢) يوســـف بن قزأوغلي أو قزغلي بن عبد الله، المعروف بسبط أبي الفرج ابن الجوزي، مؤرخ من الكتاب الوعاظ، ولد ونشأ ببغداد، ورباه جده، وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها وتوفي فيها (ت٦٥٤ هـــ /١٢٥٦م). ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٦.

(٣) علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن الســـاعي، من كبار المصنفين في التاريخ، مولده ووفاته ببغداد، كان خازن كتب المستنصرية، من تصانيفه " الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير، وتاريخ الشـــعراء وأخبار الحلاج وأخبار قضاة بغداد وأخبار الوزراء وذيل تاريخ بغداد وطبقات الفقهاء وغرر المحاضرة وأخبار المصنفين (ـــت٦٧٤ هـــ /١٢٧٥م). ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الكتب القيمة التي تطرقت للخليفة الناصر كتاب ذيل تاريخ بغداد للسمعاني[1]، وأيضاً ذيل على ذيل تاريخ بغداد للسمعاني لابن الدبيثي[2]، وقد بدأه المؤلف من حيث انتهى السمعاني إلى قبيل وفاته، وترجم لعدد كبير من العلماء والكتاب والأدباء، والشعراء والقراء، والخلفاء والوزراء وغيرهم، ممن لم يدركهم السمعاني أو فاته أن يترجم لهم، وأورد أثناء ذلك معلومات غزيرة متنوعة شملت السياسة والدين والأدب والعلم فضلاً عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية على اختلاف اتجاهاتها.

وتعتبر المقامة التي ألّفها ظهير الدين الكازروني[3] من أفضل المصادر عن الناصر لدين الله، وأسماها مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، انفرد فيها بإيراد تفصيلات دقيقة شاملة عن مظاهر الحياة الاجتماعية في العراق على عهد الناصر، فتكلم عن طبقات المجتمع، وخص طبقة الخاصة بنصيب وافر من عنايته، كما تحدث في مقامته عن المجالس الاجتماعية، ومجالس الغناء والموسيقى، وأسهب في الحديث عن مراسم الاحتفال بمختلف الأعياد والمناسبات، إلا أن حديثه عن طبقات المجتمع كان فريداً.

---

(١) عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث، مولده ووفاته بمرو، رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم، وأخذوا عنه، نسبته إلى سمعان (بطن من تميم) . من أهم كتبه الأنساب و تاريخ مرو، و تذييل تاريخ بغداد (ت٥٦٢ هـ /١١٦٧م). السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١ هـ /١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى ط٢، ج٧، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض ١٩٩٢ ص١٨٠.

(٢) محمد بن سعيد بن يحيى بن الدبيثي، مؤرخ، من حفاظ الحديث، من أهل واسط، نسبته إلى (دبيثا) من نواحي واسط، ووفاته ببغداد سنة ٦٣٧ هـ /١٢٣٩م، من مؤلفاته (ذيل على تاريخ السمعاني) الذي جعله ذيلا لتاريخ بغداد للخطيب، وله أيضاً (تاريخ واسط). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٣٩٤.

(٣) علي بن محمد بن محمود الكازروني، مؤرخ وعالم بالحساب، من رجال العصر المغولي في العراق، من أهل بغداد، خدم في الديوان، وصنّف كتباً، منها روضة الأديب في التاريخ، و كنز الحساب، والملاحة في الفلاحة والنبراس المضيء في فقه الشافعية، و مختصر التاريخ ومقامة في قواعد بغداد والمنظومة الأسدية في اللغة، توفي سنة (٦٩٧ هـ /١٢٩٨م). الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، ج٢٢، تحقيق، احمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ ص٨٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم إنه لا يمكن تجاوز كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة[1]، ومع أن هذا الكتاب يختص بتاريخ الدولة النورية والصلاحية، إلا أنه اشتمل على معظم الرسائل التي تبودلت بين الناصر والأيوبيين مبتدئاً بالسلطان صلاح الدين، فضلاً عن ذكره الكثير من الحقائق العامة لهذه الفترة التي يشترك في ذكرها الكثير من المؤرخين الآخرين، أما كتابه الآخر فهو الذيل وقد ذيّل به على الأول، وكان تكملة حقيقية للروضتين، وإن تميز بالطابع العام لكتب التراجم.

ويشترك مع كتاب الروضتين في تصوير علاقة الخلافة العباسية في فترة الخليفة الناصر مع السلاطين الأيوبيين كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد[2]، الذي يعد سيرة شاملة للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وتظهر أهميته في دراسة موضوع العلاقات بين الخلافة وصلاح الدين من جهة، وبينها وبين أتابكة الموصل من جهة ثانية، ثم صلاح الدين وأولئك الأتابكة من جهة ثالثة، ومن الجدير بالذكر ان المؤلف كان سفير صاحب الموصل إلى الخليفة الناصر في طلب وساطته للصلح بين صاحبه عز الدين مسعود وبين صلاح الدين، ثم لعب دوراً كبيراً في تسوية هذا النزاع وتقرير قواعد الصلح بين الطرفين فضلاً عن أنه التحق بخدمة صلاح الدين ولازمه منذ سنة ٥٨٤ هـ /١٨٨م وحتى سنة ٥٨٩ هـ /١١٩٣م.

---

(١) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المشهور بأبي شامة مؤرخ، ومحدث، أصله من القدس، ومولده في دمشق، وبها منشأه ووفاته، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض ومات سنة٦٦٥ هـ /١٢٦٧م، له كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية وذيل الروضتين. الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٦٩.

(٢) يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي المعروف بابن شداد مؤرخ، من كبار القضاة ولد بالموصل، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ عند أخواله " بني شداد " وشداد جده لأمه، فنسب إليهم، وتفقه بالموصل، ثم ببغداد، وتولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنين، وعاد إلى الموصل، فدرس وصنف بعض كتبه، وسافر إلى حلب، فحدث بها وبدمشق ومصر وغيرها، من كتبه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة السلطان صلاح الدين، ودلائل الأحكام في الحديث، وملجأ الحكام عند التباس الأحكام في القضاء وفضل الجهاد والموجز الباهر في الفروع وكتاب العصا(ت٦٣٢ هـ /١٢٣٤م). ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت٨٣٣ هـ /١٤٢٩م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط٢، ج٢، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥ ص٣٩٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأيضــاً كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصــل الحموي[1]، وذلك في الجزأين الثاني والثالث من كتابه، حيث عرض لغلاقة صــلاح الدي بأتابكة الموصــل، وموقف الخلافة منهم ومن صــلاح الدين، كما أورد بعض الرسائل التي تبودلت بين الناصر وصلاح الدين الأيوبي، ثم بعض أولاده من بعده، في شأن تدعيم تلك العلاقات.

ولا بد من أن نذكر ونحن في إطار ذكر المصادر التي أتت على الناصر، كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصـبهاني[2]، الذي شـارك برأيه وتدبيره في جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، وكتب عدداً من رسـائل صـلاح الدين إلى الناصر يحيطه فيها بمجريات الأمور وتفصـيلاتها، ويطلب مسـاعدته ومؤازرته ضـد الصـليبيين عند حصـارهم عكا، أو يبشره بما فتح الله على المسـلمين من الظفر بالفرنج في معركة حطين، أو القدس الشـريف وغير ذلك من شـؤون الحرب والجهاد، وبما أن العماد الأصـبهاني من رجال صلاح الدين الذين عاشوا معه جهاده، وكان المعبر عنه والناطق بلسانه إلى الناصر وملوك الأطراف، فإن معلوماته التي دوّنها عن هذه الأمور في الفتح القسي في الفتح القدسي كانت بلا شك عالية الصواب والمصداقية.

---

(١) محمد بن ســالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، مؤرخ، عالم بالمنطق والهندسة والأصولين، من فقهاء الشــافعية. مولده ووفاته في حماة أقام مدة طويلة في مصــر، واتصل بالملك الظاهر بيبرس فأرسله في ســفارة عنه إلى ملك صقلية مانفيرد، ولما عاد خلع عليه بلقب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بحماة، ومن كتبه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وغيرها الكثير من المؤلفات (ت٦٩٧ هــ /١٢٩٨م). الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤ هــ /١٣٦٢م) نكث الهميان في نكت العميان، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧ ص٢٣٦-٢٣٨.

(٢) محمد بن محمد صــفي الدين، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب ولد في أصبهان، وقدم بغداد حدثاً، فتأدب وتفقه، واتصل بالوزير عون الدين (ابن هبيرة) فولّاه نظر البصرة ثم نظر واســط، ومات الوزير، فضعف أمره، فرحل إلى دمشق، فاستخدم عند السلطان (نور الدين) في ديوان الإنشــاء، وبعثه نور الدين رسولاً إلى بغداد أيام (المستنجد) ثم لحق بصلاح الدين بعد موت نور الدين، فكان معه في مكانة (وكيل وزارة) إذا انقطع (الفاضــل بمصــر لمصالح صلاح الدين قام العماد مقامه، ولما توفي صــلاح الدين استوطن العماد دمشق ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية، وتوفي بها سنة ٥٩٧ هــــ /١٢٠١م له كتب كثيرة، منها خريدة القصر والفتح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٤٧-١٥٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الكتب التي عالجت نضال الناصر ضد سلاجقة العراق وإيران فيأتي في مقدمتها كتاب راحة الصدور وآية السرور للراوندي[1]، وقدّمه في هذه السنة إلى السلطان كيخسرو بن قلج أرسلان من سلاجقة الروم، وقد وصف رضا زاده شفق كتاب راحة الصدور وآية السرور بأنه

أهم كتاب فارسي في تاريخ سلاجقة إيران، منذ بدأ أمرهم حتى انقرضوا على أيدي شاهات خوارزم، وهذا الكتاب يحوي معلومات وافرة عن نضال الخليفة الناصر ضد بقايا سلاجقة العراق، وبخاصة آخر سلاطينهم طغرلبك الذي قتل على أيدي جيش الخلافة سنة ٥٩٠ هـ /١١٩٣م، وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أن الراوندي كان في خدمة طغرلبك، وهذا الكتاب غني بمادته عن بعض نواحي الحياة الاجتماعية خاصة فيما يتصل بالمنادمة وآدابها، والشروط الواجب توافرها في المنادم، وكذلك ما كتبه عن لعبة الشطرنج والنرد وفوائدهما، هذا بالإضافة لدراسته لكثير من الشعراء والأدباء الذين عاشوا زمن مؤلفه أو قبله بقليل[2].

وليس ببعيد عنه كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للإمام عماد الدين الأصفهاني الذي كان من بيت عمل الكثير من أفراده في وظائف رفيعة الشأن في الدولة السلجوقية، كما أن العماد نفسه تلقى علومه في المدرسة النظامية ببغداد، وفاز بوظيفة كبيرة في واسط، وقد دفعته هذه الصلة مع غيرها من الأسباب إلى تأليف هذا الكتاب، ثم اختصره الشيخ الفتح بن علي البنداري[3] فصار ينسب إليه، وقد جمع كتاب تاريخ دولة آل سلجوق تراجم لسلاطين السلاجقة، وأرّخ لعلاقتهم بخلفاء بني العباس، وخاصة الخليفة الناصر، حيث صوّر صراعه معهم الذي انتهى بسقوط دولتهم في العراق، وتكلم عن نشأة بعض دول الأتابكة التي انشقت عن دولة السلاجقة العظام، وعرض أيضاً للفتن التي ثارت في العراق وبعض بلدان المشرق بين السنة والشيعة وبعض الطوائف الدينية الأخرى.

---

(١) . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ٢٣٠.

(٢) شفق، رضا زاده، تاريخ الأدب الفارسي، نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧ ص١٢٠-١٢٠.

(٣) الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، أديب بالعربية والفارسية، ولد ونشأ بأصفهان، وانتقل إلى دمشق سنة ٦١٤هـ/ فاستمر فيها إلى أن توفي، ترجم الشاهنامة عن الفارسية، وله تاريخ بغداد وزبدة النصرة اختصره من كتاب نصرة الفترة لعماد الدين الكاتب، في تاريخ الدولة السلجوقية (ت٦٤٣ هـ /١٢٤٥م). الزركلي، خير الدين محمود، الأعلام، ط١٥، ج٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ ص١٣٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: صورة الناصر السلبية في المصادر

إن من أهم المصـــادر التي وقفت موقفاً ســـلبياً من الناصر كتاب اللمع في الحوادث والبدع لابن بيدكين التركماني، والذي وقف موقفاً مناقضاً لنظام الفتوة، الذي ابتدعه الناصر، واستمر حتى نهاية عصر المماليك وما بعده، ويعتبره التركماني من أقبح البدع التي تغضب الرحمن وترضي الشيطان، فلقد خرج أصحابها عن السنة، وما جاء به القرآن، وعملهم لا يعمله إلا كل مبتدع وتمرد وشيطان، بل إنه وصف الفكرة التي يقوم عليها كيانهم بأنها" لا أصل لها في الشرع، وما أنزل الله بها من سلطان"[١]، ويؤكد ابن بيدكين أن انتساب الفتى إلى علي بن أبي طالب كذب وافتراء، وإن كل ما يقوله كبير الفتيان كذب أيضاً، وإن جمعهم المردان وإخوان البطالة ضـــلالة، وجو الاحتفال الذي يقام حين يلتحق بهم أعضـــاء جدد مشـــبع بالخروج عن الدين والفســـق[٢]، وإفســـاد أولاد المســـلمين الذين يتعلمون من هؤلاء الضرب بالسكين[٣]، وفضلاً عن ذلك فإن لباس الأمرد ذنب عظيم، وشد التكة بين جمع من المسلمين لا بد أن يوجب لهم المقت من رب العالمين، وفي نظر التركماني أن كل هذه الأشـــياء تأتي من قلة الحياء والدين، كما يؤكد أن الفتى الكبير وهو علي بن أبي طالب بريء من تلك الأخوّة، ومن هؤلاء الفتيان، ثم يكرر التركماني رواية أهل التفسير أن الآية (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) [٤] نزلت في حق علي بن أبي طالب[٥]، وينصح التركماني بالطريق السوي ألا وهو كسر الأصنام المعنوية، إن كسرتها فأنت فتى، وهي النفس والشيطان، والهوى والشهوة والدنيا، وفي رأي التركماني أن شعيرة الفتيان" لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي"، التي تصف أخلاق علي وطاعته وعلمه وشجاعته وصدقه لا تتفق مع بدع الفتيان وما ابتدعوه، وأكثر من ذلك فإنهم قد أضافوا ما يفعلونه من القبائح لأمير المؤمنين، فإن احتجوا بفعل هذه المحظورات كخلاص محبوس منهم، أو من لزمه دين، بأنهم يفعلون الخير فقد اخترقوا القانون[٦].

---

(١) ابن بيدكين، ادريس بن بيدكين بن عبد الله، اللمع في الحوادث والبدع، تحقيق وتقديم صبحي لبيب، القاهرة ١٩٨٦ ص١١٣.

(٢) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١١٤-١١٦-١٢١.

(٣) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١٢١.

(٤) القرآن الكريم، سورة الإنسان، الآية ٨.

(٥) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١١٦.

(٦) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١١٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا شك أن كل هذه الانتقادات هي انتقاد مبطن للخليفة الناصر لدين الله، فالناصر قد أصبح هو الفتى الذي يشرب له كل الفتيان كأس الفتوة، حتى أنه بعث إلى كل ملوك الأطراف أن يشربوا له هذا الكأس، يقول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: " وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، ويكون انتماؤهم إليه، ورعية كل ملك يشربون لذلك الملك، ويلبسون له، ففعلوا ما أمروا به"[1]، بل لقد انتسب الملوك إليه في رمي البندق وجعلوه قدوتهم فيه[2].

مع العلم أن الخليفة قام بهذه المحاولة للم الشمل، وإعطاء الخلافة مكانة رسمية في العواصم الإسلامية الخاضعة للعباسيين، وكان هدفه السعي إلى إحياء سلطة الخليفة في الولايات، وإلى تدعيم مركزه في العراق، وإلى تخفيف شقة الخلاف بين السنة والشيعة، أملاً في أن يتمكن بذلك من توحيد الصفوف لمواجهة الأخطار التي بدأت تندلع من أواسط آسيا خلف ما وراء النهر، وأصبحت تهدد الكيان العباسي وبغداد في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

إن التركماني حينما وجّه نقداً للناصر كما أسلفنا، لم يكن على علم بأهداف الخليفة أو بما يواجه العالم الإسلامي من أخطار، ليس آخرها خطر المغول الذي شاهده، ولكن يظهر أن التركماني آثر أن يستمر على مبدئه في الدفاع عن السنة والتمسك بأن من واجب الدولة أن ترعى أهلها، وأن الدولة لها مؤسسات في الدفاع عنهم في الداخل والخارج، يعني أنه بالشرطة وبالجيش، لذلك اعتبر عمل الفتيان لتخليص المحابيس من أصحابهم ذنباً ووزراً، ويستمر في طرحه لأفكار الفتوة فيقول: " فإن قالوا إن هذه الطريقة التي نحن عليها ما أحدثناها، بل أخذها كبير عن كبير إلى الخليفة ((يقصد الخليفة الناصر)) فالإجابة ناصعة: ليس ذلك بحجة[3]، وحجة التركماني ضدهم هي قول الرسول: عليكم بسنتي وسنة

---

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، د. ن، القاهرة ١٩٨٠ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٤، ص١٦٤-١٦٦.

(٣) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١٢١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخلفاء الراشـدين[1]، ولم يقل بسـنة الخارجين، فقد كان في الخلفاء الخارج عن السـنة، ولا يحل لأحد من خلق الله أن يطيع الخليفة، ويعصي الشريعة الشريفة لقوله عليه الصلاة والسلام لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[2].

ويتابع التركماني أن على ولاة الأمر أن يزيلوا من بين المسلمين ما تفعله هذه الطائفة الضالة من البدع والبهتان والزور، فردعهم والله مثوبة عظيمة تقرب للرب الغفور، وتنجي صاحبها من أهوال يوم النشور، ثم أمعن في السخط على تلك الفتوة فربط القضاء عليها بالأمر بالمعروف الذي يقرب للرب الرؤوف، وانتهى إلى أن من رضي بهذه الفتوة لم يرض الله عنه، لما جاء في الحديث " من رضي بالفاحشة كمن عملها"، أو من كثّر سواد قوم فهو منهم"، بل إنه التمس في قول المسيح دليلاً على ما يورد " يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض المعاصي"[3].

في الواقع إن الخليفة الناصر لم يكن مبتدعاً لتنظيم الفتوة، بل هي قديمة أرجعها ابن المعمار إلى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي زمن الناصر زادت الفتن ببغداد بحيث أصبح فتيان كل محلة يشكلون جماعة واحدة ويتعصبون ضد المحلات الأخرى، فرأى الناصر أن الفتوة لا تزال تتعرض للجرائر والاضطراب، فقام بإلغاء الفتوة القديمة، وأمر أن تجدد فتوة الفتيان الذين لم يأخذوا التفتي عنه، وصار بذلك المرجع لجميع الفتيان، والقبلة الجديدة في التفتي التي تستوجب التجديد، والتي هي انتماء جديد، وأمور الفتوة ستتم معالجتها في فصل لاحق.

أما الكتاب الثاني الذي وجدنا فيه تحاملاً على الناصر فهو كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، الذي وقف موقفاً سلبياً من الناصر، فأورد عدة اتهامات في مواضع عدة من كتابه الكامل، أظهر فيها الخليفة شخصاً متناقضاً في أفعاله وتصرفاته، والتي دفعته إلى ارتكاب أخطاء عدة في مسيرته، التي استمرت ما يقارب سبعةً وأربعين عاماً.

يقول عند حديثه عن وفاة الناصر : " ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة، في رعيته ظالماً، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ؛ ليفطر الناس عليها في

---

(١) ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك (ت٤٤٩ هـ /١٠٥٧م) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ط٢، ج٧، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية ٢٠٠٣ ص٤٤٨.

(٢) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١٢١.

(٣) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص١٢٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رمضـــان، فبقيـت مـدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضـــيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصـةً، ثم أعادها، وجعل جل همه في رمي البندق، والطيور المنـاســـيـب، وسراويلات الفتوة، فبطـل الفتوة في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة.

وكذلك أيضـــا منع الطيور المناســـيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسـاناً واحداً يقال له ابن السفت من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشـام، فأرسـل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسـب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصـدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد إلا يرمي للخليفة، إلا أنا.

فكان غرام الخليفة بهذه الأشـياء من أعظم الأمور، وكان سـبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراســـلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصـــغر عندها كل ذنب عظيم[1].

إن قراءةً أوليـة لهـذا النص تجعـل القـارئ يتهم النـاصر بـالتهم التـالية، اتهامه بمراســـلة المغول واطماعهم في أملاك الدولة العباسية، واهتمامه بالفتوة وانشغاله عن مصالح الأمة، وعدم اتباعه سياسة واحدة وتضارب أفعاله، وكثرة فرضه للضرائب على الناس.

ولكن هـل هـذه التهم صـــحيحة؟ أم أن هناك تحاملاً على الناصر؟ أما عن مكاتبته للمغول، فقد أورد سـنة ٦١٧ هـــ / ١٢٢٠م" وقيل في سـبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[2]

ثم جاء بعده المؤرخون وردّدوا ما قاله، وبعضهم كان مشكّكاً دون أن ينفيها أو يثبتها، فأبو الفداء ينقل الرواية حرفياً عن ابن الأثير[3]، أما ابن الوردي فإنه ينقلها مشكّكاً بها فيقول: " وقيل أنه هو الذي

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٠٠-٤٠١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٣٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٣٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كاتب التتر ليشتغل بهم خوارزم شاه عن العراق[1]، وكذلك أوردها ابن الأثير فقال : قال ابن الأثير: وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[2]، وأوردها الغساني نقلاً حرفياً عن ابن الأثير، فيقول محقق العسجد في دراسته للكتاب: لما لم نعثر على نسخة ثانية للعسجد، ونظراً للتشابه الكبير بين حوادث الكتابين، فقد اعتبرنا الكامل نسخة ثانية للعسجد لغرض المقابلة، والتوثق من الحوادث في القسم الذي حققناه من العسجد حتى سنة ٦٢٨ هـ /١٢٣٠م[3].

ثم يأتي المؤرخ المصري المقريزي بعد قرنين من الزمان ليؤكد التهمة فيقول: " وفي خلافته ضرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إل همذان، وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه"[4].

وهذه التهمة كان يرددها السلطان جلال الدين منكبرتي وهو آخر حكام الخوارزميين، فكان يقول: " كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع"[5]، وكثير من المؤرخين أيّدوا هذه التهمة، منهم عباس العزاوي[6]، ثم حافظ حمدي الذي اعتمد آراء المستشرقين مثل دوسون وهوررث وبارون وجيرنار[7].

لا بد من القول أن الخليفة الناصر بذل جهوداً لإعادة اللحمة إلى العالم الإسلامي، فلم يتردد من إقامة علاقات دبلوماسية مع الحشاشين في قلعة ألموت، ففي سنة ٦٠٨ هـ /١٢١٢م دُعي الإمام الإسماعيلي حسن الثالث إلى الجماعة الإسلامية، ولعل في ذلك نوع من إنهاء تلك الكراهية التي كانت مستعصية بين الطرفين، وخُطب للخليفة الناصر فوق منابرهم[8].

---

(١) ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) تاريخ ابن الوردي، ط١، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦ ص١٤٤.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت٧٧٤ هـ /١٣٧٢م) البداية والنهاية، ط١، ج١٣، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨ ص١٢٥.

(٣) الغساني، (ت٨٠٤ هـ /١٤٠٢م) العسجد المسبوك، ص١١٤ (مقدمة المحقق).

(٤) المقريزي، أحمد بن علي (٨٤٥ هـ /١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧ ص٢١٨.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٦٢٤.

(٦) العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، ج١، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٣٥ ص٩٦.

(٧) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت (د.ت) ص٥٣.

(٨) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٥٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما حرص الناصر على إدامة الود والتعاون بين العباسيين والأيوبيين في مصر والشام خاصة بعد قيام نور الدين زنكي ٥٦٧هـ/١١٧١م بالقضاء على الدولة الفاطمية بمصر وإعادة الخطبة للخليفة المستضيء، فتم للخلافة العباسية الهيمنة الروحية على مصر، وقد تبادلت الخلافة ببغداد مع مصر والشام الوفود والبشارات، وكانت الخلع والهدايا تُحمل بين الحكام والأمراء والولاة[١].

إن المصادر لم تذكر عن مساعدات عسكرية من الخليفة إلى حكام الشام ومصر، لأن الخليفة هو الذي كان يحتاج المساعدة المالية لإعادة بناء دولة الخلافة ومؤسساتها، الأمر الذي دفعه لفرض ضرائب جديدة، كما أن حكام مصر والشام كانوا متخوفين أن يقعوا تحت سيطرة الخلافة الكاملة، فاكتفوا بالعلاقة الودية والدعم المعنوي والتأييد الروحي، والاحتكام لرأي الخليفة عند نشوب النزاعات[٢]، وتستمر هذه العلاقة الحسنة بين الخلافة والدولة الأيوبية، فقد أسرع أولاد صلاح الدين إلى إعلان الولاء للخيفة وطلب التقليد منه، بل إن الخلافات التي نشبت بين ورثة صلاح الدين أعطت الفرصة لتغلغل نفوذ الخلافة العباسية أكثر وأكثر، فالسيوطي يقول:" وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره في خلواتهم خفضوا أصواتهم هيبة وإجلالاً " [٣]، وبالرغم من أن المقتفي لأمر الله قد تخلص من السيطرة السلجوقية على العراق، إلا أن الطموح السلجوقي في استعادة نفوذهم المفقود ظل حلماً، وعندما جاء السلطان طغرلبك الثالث بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلطنة سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م عاود المحاولة فأرسل إلى الناصر يطلب منه تعمير دار السلطنة ليسكنها، وهي الدار التي كان ينزل بها سلاطين السلاجقة حين يأتون لبغداد، فما كان من الناصر إلا أن أمر بهدم الدار وتسويتها بالأرض[٤].

ولم يكتف الناصر بهذا بل إنه قام بمحالفة أعداء طغرلبك من الخوارزميين، فأرسل إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يطلب منه قتال السلاجقة مقابل تفويضه حكم البلاد التي فتحها، ولم يتأخر علاء الدين واعتبر هذا الطلب بمثابة الاعتراف بهم وشرعيةً لهم، وسار على الفور والتقى طغرل في الري سنة ٥٩٠ هـ /١١٩٤م وانتهت المعركة بمقتل طغرل[٥]، وبذلك انتهت دولة السلاجقة.ولكن علاء الدين تكش

---

(١) حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (٥٥٣-٦٢٢ هـ /١١٥٨-١٢٢٥م)، بحث ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة، عمان ١٩٨٨ ص١٤٥.

(٢) حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (٥٥٣-٦٢٢ هـ /١١٥٨-١٢٢٥م)، ص١٤٧.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٢ ص٣١٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٢٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

راودته أحلام طغرل في السيطرة على بغداد، فعندما أرسل إليه الخلع لم يستقبل رسول الخليفة ورفض لبس الخلعة، فكان هذا إيذاناً ببداية العصيان والتمرد[١]، وردّ الخليفة على هذا بأن أرسل جيشاً سنة ٥٩١ هـ /١١٩٤م فاسترد أصفهان ولاحقاً خوزستان[٢] وهمذان[٣] والري[٤].

وحين عاود السلطان علاء الدين تكش تهديد الناصر، قام الناصر باستغلال سوء العلاقة بين الخوارزميين والغوريين، فراسل سلطان غزنة[٥] غياث الدين الغوري لمهاجمة الخوارزميين منعاً لهم من التوجه إلى بغداد، فأرسل غياث الدين إلى سلطان الخوارزميين يتهدده بقصد بلاده وأخذها[٦]، وعندما وجد علاء الدين تكش الموقف لغير صالحه أرسل سفارة إلى الناصر معتذراً عن تهديده، ولتأكيد حسن النوايا أرسل علاء الدين أخاه إلى بغداد إظهاراً للطاعة واعتذاراً عن طلبه الخطبة[٧].

ولم يدم صفو العلاقة بين الخوارزميين والدولة العباسية، فحاول السلطان علاء الدين محمد بن السلطان علاء الدين تكش سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧م من جديد السيطرة على الخلافة العباسية، فأرسل رسالة شبيهة برسالة والده، وأعلن خلع الخليفة العباسي وتنصيب خليفة علوي يُدعى علاء الملك الترمذي[٨]، ثم جهّز جيشاً لمحاربة بغداد، ولكن الفشل كان حليفاً لتلك الحملة، فما أن انطلقت الحملة حتى اضطربت الأمور ببلاده[٩]، واتخذ الناصر جملة من الاستعدادات لحماية بغداد " ففرق السلاح وصرف الأموال، وأقام المتاريس حولها[١٠]، وكانت الظروف المناخية قد لعبت دوراً في إفشال الهجوم،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٢٩.

(٢) خوزستان وهو اسم لجميع بلاد الخوز، وهو نواحي أهواز، بين فارس وواسط والبصرة وجبال اللّوز المجاورة لأصبهان. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٤.

(٣) همذان مدينة من الجبال أعذبها ماء وأطيبها هواء، وهى أكبر مدينة بها. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤١٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣٦. الري مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات، قصبة بلاد الجبال، على طريق السابلة. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١٦.

(٥) غزنة هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٠١.

(٦) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) العبر في خبر من غبر ط١، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ ص١٠٥.

(٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٩.

(٨) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٨٢.

(٩) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٠.

(١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٦١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهبّت عواصف ثلجية استمرت ثلاثة أيام أدت إلى هلاك معظم دوابه وتعطيل حركة جيشه، فاضطر إلى الرجوع[1].

إن الناصر يكون بهذا قد استكمل جهود المقتفي لأمر الله لاستقلال الخلافة العباسية، وإعادة وحدة العراق كما كان في السابق، فأصبحت أملاك الخلافة في عهده تمتد من تكريت في الشمال إلى عبدان على الخليج العربي في الجنوب، ومن الري وأصفهان في الشرق إلى حديثة عانة في الغرب، ويقول ابن واصل: " وفي أيام الناصر لدين الله عظمت حشمة الخلافة جداً وقوي شأنها، واستولى مع العراق على اقليم خوزستان وغيرها من الأطراف، وملك همذان وأصفهان" [2].

ومن الضروري القول أن هذه التهم التي أوردها ابن الأثير لم ترد في المصادر المعاصرة والقريبة من الحدث، أمثال ابن الدبيثي وابن النجار وأبو شامة وابن شداد وسبط بن الجوزي وابن الساعي والصفدي والكتبي، حتى أن المؤرخ المعروف بالنسوي وهو مؤرخ الدولة الخوارزمية لم يورد هذه الرواية، مما يؤكد براءة الناصر من هذه التهم، كما أن رواية ابن الأثير بدأت بقوله: " وإن كان"، وينسب ابن الأثير الرواية إلى العجم (الخوارزميين)، فكيف يمكننا الوثوق برواية كان مصدرها طرفاً معادياً للدولة العباسية، وزيادةً على ذلك فإن حكام الخوارزميين دأبوا على اتهام الخلافة العباسية بمعاداتهم، فحاول السلطان علاء الدين محمد كسب الرأي العام وإثارته على الخلافة، فقام بدعاية كبيرة للتشهير بها، عندما أعلن أنه عثر على وثيقة في غزنة تثبت تحريض الخليفة للغوريين على مهاجمته، واتخذ من ذلك ذريعة للتشكيك في شرعية حكم الخليفة العباسي، بل إنه قطع الخطبة للخليفة العباسي[3]، ونصب خليفةً علوي من ترمذ[4]، راغباً في كسب ولاء الشيعة في المشرق والعراق.

كما أن علاقة علاء الدين محمد خوارزم شاه كانت قائمة بالمغول من قبل أن يتوجه إلى بغداد، حيث كان قد عقد معهم حلفاً للتخلص من غارات قبائل الخطا على بلاده، وبعد أن تم القضاء على

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٨٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، ص١٧٠.

(٣) القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، العراق ١٩٧١ ص٢٢٧.

(٤) ترمذ مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دولة الخطا والتي كانت تمثل حاجزاً بينه وبين المغول، صار اللقاء مع المغول أمراً محتماً، وخصوصاً إذا علمنا أن الغزو المغولي للعالم الإسلامي كان غزواً شاملاً، ولم يكن المغول بحاجة إلى تحريض الخليفة ليغيروا على بلاده أو يغزوها، فالبيئة القاسية التي عاشوها كانت دافعةً لهم إلى الغزو التماساً للرزق ومهرباً من قسوة الحياة، فهم مستعدون لإزالة أي قوة تقف في وجوههم سواء كانوا خوارزميين أم عباسيين[1].

(١) القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص٢٣٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة

تتميز الفترة الأخيرة من العصر العباسي بظهور النزعات الاقليمية والاستقلالية، فأخذت تظهر الإمارات والدويلات المستقلة في بلدان الخلافة الشرقية، ولكن بالرغم من ميل البعض إلى الاستقلال إلا أنهم كانوا دائماً يحسون بالحاجة إلى الاعتراف والمباركة من الخليفة في بغداد، وهذي يُعطيهم الصفة الشرعية أمام رعاياهم في تلك البلاد.

المبحث الأول : العلاقات مع الخوارزميين

نستطيع أن نتلمس أولى العلاقات بين الخليفة الناصر الممثل للدولة العباسية وبين الخوارزميين زمن السلطان علاء الدين تكش، فقد كانت العلاقة بينهما علاقة المتبوع بالتابع، وقامت على التعاون المتبادل، ثم تطورت إلى نزاع وخصام، فقد كانت الخلافة تسعى إلى القضاء على بقية سلاجقة العراق الذين بدا الضعف فيهم واضحاً، ومن جهة أخرى كان السلاجقة يسعون إلى توسيع نطاق نفوذهم بالاستيلاء على ممتلكات السلاجقة، واسترداد بعض ما أخذ منهم أثناء حروبهم مع الخطا والغوريين، لذا فقد التقت مصلحة الطرفين، الخلافة وشاهات الخوارزمية على ضرورة التخلص من السلطان طغرل بن ألب أرسلان شاه آخر سلاطين سلاجقة العراق، الذي يبدو أنه حاول السيطرة على الخلافة والدولة الخوارزمية عل السواء، وعليه فإن خوارزم شاه لم يتردد في تلبية دعوة الناصر للخلاص من طغرل، إذ أن الخليفة أغراه بإقطاع بعض البلاد إن أنجز هذا الأمر، وقد وفى الناصر له بما وعد حين تمكن علاء الدين تكش من قتل طغرل، وإرسال رأسه إلى بغداد حيث الخليفة الناصر[1].

وبعد مقتل طغرل استولى علاء الدين خوارزم شاه على بلاد طغرل همذان وغيرها، وتولى الحكم رسمياً من قبل الخلافة، وأقطع مماليكه واستعان بابن البهلوان، ورجع إلى خوارزم، وبهذا تجاورت أملاك العباسيين والخوارزميين، مما حفّز الاحتكاك بينهما[2].

وما إن حاولت الدولة الخوارزمية التوسع حتى جهّز الناصر سنة ٥٩١ هـ /١١٩٤م جيشين، أحدهما بقيادة الوزير ابن القصاب ووجهته خوزستان، والآخر سيف الدين طغرل ووجهته أصفهان وما جاورها، أما الجيش الأول فقد استطاع بعد جهد كبير أن يستولي على مدينة تستر حاضرة الإقليم بعد أن

---

(١) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص٢٤٥-٢٤٧.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٣٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عجز أهلها عن الصمود، واسترد غيرها من البلاد والقلاع والحصون، وأجلى مغتصبيها من عمال الخلافة إلى بغداد[1]، ثم سار الوزير إلى ميسان من أعمال خوزستان، فوصل إليه قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، منهزماً من خوارزم شاه علاء الدين تكش عند زنجان، فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، ورحلوا إلى كرمان شاه، ومنها إلى همذان حيث تمكنوا من طرد جيش خوارزم شاه، الذي كان عليه مقدماً " مياجق"، وعليهم كلهم يونس خان بن خوارزم شاه، وكانت النتيجة هروب هؤلاء من وجه جيش الخلافة إلى الري[2].

أما الجيش الثاني المتوجه لأصفهان فإنه وجد الأمور مناسبةً أكثر، إذ كان أهلها يكرهون الخوارزمية، ويتطلعون إلى الخلاص من سيطرتهم، لذلك بعث رئيس الشافعية بها صدر الدين الخجندي إلى ديوان الخلافة ببغداد يعرض تسليم البلد إلى من يصل إليه من دار الخلافة، وكان الخجندي ذو نفوذ ومطاع من جميع أهل أصفهان، لذلك لم يتردد الخليفة في إنفاذ الجيش، الذي لم يلق مقاومة حين وصوله إلى ظاهر أصفهان، إذ ما كاد الجيش الخوارزمي يعلم بوصوله حتى ترك أصفهان ورجع لخراسان، فدخلها جيش الناصر وملكها، وخُطب له فيها[3].

ونزل الوزير القصاب في سنة ٥٩٢ هـ /١١٩٥م في قصر خوارزم شاه في همذان بعد أن أقام بظاهرها ثلاثة أشهر، وعيّن سيف الدين طغرل والياً عليها، وبعث بالأمير سنقر الطويل مع ألفي رجل إلى أصفهان، لقهر صدر الدين الخجندي، الذي انتهز دعم الخلافة له فاستولى على أصفهان، وتمكن سنقر في النهاية من أن يقتله[4]، ثم لم يلبث الوزير حتى توفي في شعبان من سنة ٥٩٢ هـ /١١٩٥م، فهو حين كان أقبل من الري كان مريضاً[5].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣١.

(٢) الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت٥٩٩ هـ /١٢٠٣م) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، الإدارة العامة للثقافة، مصر ١٩٦٠ ص٥٢٢-٥٢٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٣٦.

(٤) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٥) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٢٥٨-٢٥٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقبيل وفاة ابن القصاب، وإثر انتصاراته على جيوش الدولة الخوارزمية بعث خوارزم شاه تكش رسوله إلى همذان ينكر عليه أخذ البلاد من عساكره، ويدعوه إلى إرجاعها له، وإقرار الصلح بين الطرفين، إلا أن ابن القصاب رفض تلبية رغبة الخوارزميين، وعند ذلك سار جيش خوارزم شاه إلى همذان، وفي هذه الأثناء توفي ابن القصاب[1]، وقد أخفى جيش بغداد خبر وفاته واستعد للقتال، وقتل من الفريقين عدد كبير، ولكن النصر كان حليفاً للخوارزميين، وتمكنوا من الاستيلاء على الري ثم همذان، وقتل وأسر عدد غير قليل من أفراد جيش الخلافة[2]، على أن خوارزم شاه تكش أراد أن يبرهن للخليفة أنه ما زال تابعاً له رغم كل ما حدث، فأطلق سراح أسرى جيش الخلافة، وأنعم عليهم وقال لهم : إني أنا أيضاً عبد لأمير المؤمنين، فإذا أردتم أن تقيموا هنا فلتبقوا، وإلا فلتذهبوا[3]، ولكن الناصر رفض هذا التقرب فكتب سنة ٥٩٣ هـ /١١٩٦م إلى الأمير أبي الهيجاء السمين وهو أحد الأمراء المعدودين يأمره بالسير إلى همذان، وطرد من بها من الخوارزميين، ونجح السمين في محاصرة الملك أوزبك بن البهلوان والاستيلاء على همذان[4].

وبالرغم من بعض الانتصارات التي حققها خوارزم شاه تكش واستيلائه على بعض البلدان لاحقاً، إلا أن الناصر لم يقبل أن يضع نفسه تحت رحمة الخوارزميين، خشية تماديهم، فأوعز إلى بعض الأمراء بمهاجمة ما اغتصبه خوارزم شاه تكش من بلدان الخلافة الشرقية، فهاجم الملك أوزبك والأمير كوكجا وناصر الدين أغوش زنجان، بينما أغار مياجق على همذان، وأورد الراوندي ما قاله الخليفة للأمير مياجق: " إن خوارزم شاه ليس إلا حاكماً من قبلنا، أما شمس الدين مياجق فهو نائب أمير المؤمنين على الإطلاق وهو محافظ الثغور وملك الآفاق، ثم نزل مياجق في موضع قريب من همذان، وراح يستمع لشيوخها يروون له ما كان يجري فيها، ثم وعدهم بإقامة دعائم العدل فيها، ودعاهم إلى معاونته باستمالة قلوب الرعية، وأعلن عزمه على امتلاكها[5].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٣.

(٢) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٣٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١١.

(٣) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٣١-٥٣٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٢.

(٥) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٥٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم أرسل الناصر إلى غياث الدين الغوري صاحب غزنة يشكو إليه عدوان خوارزم شاه، ويدعوه لمنعه من ذلك، فلما رجع علاء الدين تكش من همذان إلى خوارزم وصل إليه رسول غياث الدين الغوري يلومه على ما فعله مع الخليفة الناصر، ويدّده بأخذ بلاده إن هو فعلها مرة أخرى، فلجأ الخوارزميون إلى الخطا يحرّضونهم على الغوريين، ولكن الغوريين أفلحوا في إلحاق هزيمة قاسية بالخطا وبحلفائهم الخوارزميين سنة ٥٩٤ هـ /١١٩٧م[١].

وهكذا فإن علاء الدين تكش خوارزم شاه وجد نفسه مضطراً إلى تغيير علاقته مع الخلافة العباسية، وتغيير هذه السياسة القائمة على العداء، فأصدر منشوراً بحضور أئمة همذان يعترف فيه بسيادة الخلافة على العراق كله، ويعترف كذلك بحكم مياجق حاكم همذان من قبل الخليفة، ويأمر بأن يخضع له جميع الحكّام والقضاة[٢].

وهكذا سار الوفاق بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية، وفي سنة ٥٩٦ هـ /١١٩٩م توفي علاء الدين تكش وتولى مكانه ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه، فنجد أنه سار في بداية عهده بسيرة أبيه، حيث كان موادّاً للخلافة، وسارت الرسل بين بغداد وخوارزم برسائل المودة والاحترام، فمثلاً في سنة ٦٠٢ هـ /١٢٠٥م وفد إلى بغداد نظام الدين محمد بن عبد الكريم السمعاني رسولاً من علاء الدين محمد خوارزم شاه، وتم استقباله بمزيد من الحفاوة والتكريم، وأذن له بالجلوس بباب بدر من دار الخلافة فجلس للوعظ، وقبول ابن الساعي في ذلك: " وأحسن الكلام..... وبالغ في الثناء على البيت العباسي الشريف، وأكثر من الدعاء للخدمة الشريفة الناصرية"[٣]، وردّ الخليفة الناصر على ذلك بأن بعث رسولاً للخوارزميين سنة ٦٠٥ هـ /١٢٠٨م عاد محملاً بالهدايا[٤]. إلا أن شكل هذه العلاقات الحسنة لم يُكتب له الدوام، لأنه بالدرجة الأولى يتعارض مع سياسة علاء الدين محمد خوارزم شاه القائمة على التوسع والامتداد، وكانت الوجهة الأولى له جهة الشرق حيث دولة الخطا التي ألحقت

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٤.

(٢) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٥١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٤.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص١٦٧-١٦٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٦.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص١٦٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بهم هزيمة سنة ٥٩٤ هـ /١١٩٧م[١]، وبعد معارك كثيرة كانت سجالاً بين الطرفين، استطاع علاء الدين محمد خوارزم شاه من القضاء نهائياً على دولة الخطا وذلك سنة ٦٠٦ هـ /١٢٠٩م وفرض سيطرته منطقة بلاد ما وراء النهر كلها[٢].

ثم ذاع صيت علاء الدين محمد خوارزم شاه بسبب هذه الانتصارات وعظم أمره حتى أطاعه القريب والبعيد، فتطلّع إلى الخلافة في بغداد وتلقّب بالسلطان كما كان الأمر مع السلاجقة من قبل، فقرّر قصد العراق والاستيلاء عليها والسيطرة على الأمور في بغداد[٣]، فاستولى بداية على بلاد الجبل من العراق العجمي، ثم الري وهمذان وأصفهان وساوة وقزوين وزنجان وأبهر وقم وقاشان، فيكون أخضع العراق للعجمي لسيطرته، وأقطع بعض هذه المناطق للأمراء التابعين له[٤]، وأعدّ جيشاً اختلفت الروايات في عدده[٥]، وأخذ يرسل للناصر يطلب ميراث السلاجقة، ولأن الناصر كان يدرك تمام الإدراك أنه لا قبل له بمواجهة الخوارزمي فإنه لجأ لسياسة التهديد والوعيد علّها تجدي نفعاً، فأرسل رسالة مع مجير الدين البغدادي وهو مقيم في همذان، فتلقّاه بكل احترام وتبجيل وكان نص الرسالة كما يلي: " إن ملك أبيك وجدك كان منحة منا، ونحن الآن نسلّمه إليك، فاقنع به كما كان فيما سبق، ولا تطمع في أكثر منه، وإلا سأكتب إلى الأمصار أنك خارج علي، فينهض الناس في سائر البلاد لغزوك وتراق الدماء"[٦]، فرد عليه الخوارزمي قائلاً: " الحكم لأمير المؤمنين، وما أنا إلا شحنة من قبله"، ثم طلب أن يتعطف عليه ويعطيه ولاية خوزستان، لأن أتباعه كثيرون لا يكفيهم القليل من الخبز الذي تغلّه بلاده اليسيرة[٧]، ثم تتابعت الرسل بعد ذلك وكان الخوارزمي يكرّر طلب ما كان للسلاجقة، والخليفة الناصر مصر على رأيه بالرفض وعدم القبول، وبعث له برسالة مع شهاب الدين السهروردي، لعله يقنع الخوارزمي ويثنيه عن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥٣.

(٢) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص٦١-٦٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٥٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٩٩-٣٠٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٧-١١٨.

(٥) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٠٠.

(٦) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٣٤.

(٧) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص٥٣٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القدوم لبغداد، ويبصّره بعواقب فعلته، فقابله الخوارزمي بمزيد من الاحترام تمييزاً له عن سائر الرسائل الواردة عليه من الديوان[1]، وهذا ما يؤيده ابن خلدون: " فأكبر السلطان مقدمه وقام لتلقيه وأول ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد وجلس على ركبتيه لاستماعه...." [2]، ومع ذلك انتهت هذه المقابلة دون أن يتوصل الطرفان لاتفاق، ورجع السهروردي إلى بغداد والوحشة قائمة على ساقها[3].

عندئذ بحث الخليفة الناصر عن حليف له، فتحالف مع جلال الدين حسن زعيم الاسماعيلية لاستخلاص العراق العجمي من الخوارزمية، وأوعز إلى الباطنية بقتل إغلمش نائب الخوارزمية في العراق، فقتلوه عند لقائه حجاج بيت الله الحرام سنة ٦١٢ هـ /١٢١٥م، وقام بتحريض بعض الأمراء عليه، ومع ذلك لم تجد هذه الأمور نفعاً[4]، وبعد هذه الأحداث قرّر الخوارزمي سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧م على المسير إلى بغداد ودخولها قسراً، وكان أماه طليعة يصل عددها ما يقرب من خمسة عشر ألف جندي، فلما رأى الناصر إصراره على الحرب أعلن النفير العام في بغداد، وفرّق الأموال، ووزّع السلاح على الناس وأخذ يستعد للقتال[5].

إلا أن القدرة الإلهية تحول دون أن يحقق الخوارزمي مراده، فما أن ابتعد عن همذان مسيرة يومين، ووصل إلى عقبة سدأباد في طريق بغداد حتى تزلت على جيشه عواصف ثلجية عاتية، بلغ من شدتها قسوةً أنه لم يسمع بمثلها أحد[6]، وترتب على ذلك أن هلك الكثير من الرجال والدواب، ودب الفساد في من بقي من الجيش[7].

---

(١) النسوي، محمد بن أحمد (ت٦٣٩ هـ /١٢٤١م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر ١٩٥٣ ص٥١.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨ هـ /١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط٢، ج٥، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ ص١٢٨.

٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٠٠-١٠١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١١٩-١٢٠.

(٤) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٥٣-٥٨. حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص٤٣.

٥) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٠٠-١٠١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢١٩.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٠٠.

(٧) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٦٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٢٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويروي سبط ابن الجوزي أن الوزير مؤيد الدين القمي كان له دور في تأليب قسم كبير من جيش الخوارزمي وإفساده عليه، فقد اتصل بسبعين ألفاً من الخطا ممن كانوا مع الجيش ووعدهم بالبلاد إن هم قتلوا خوارزم شاه، أو إن تمكنوا من خذلانه أو منعه من قصد بغداد، وأرسل لهم الأموال والخيول والخلع بشكل سري، " فكان ذلك سبباً لوهنه"[١]، ونتيجة هذه الأحداث التي حلّت بالجيش قرر علاء الدين محمد خوارزم شاه العودة بسرعة إلى خراسان، ولكن في طريق الانسحاب هاجمهم بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فلم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير[٢]، ومن اللطيف الإشارة إلى تفسير ابن الأثير لهذا الحدث حيث يرى أنه الخلافة محمية بإرادة الله، ومن يقترب منها بسوء فإن عقابه سيحصل فيقول: " وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله، وخبث نيته، لا جرم لم يمهل خوارزم شاه هذا حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع، بمثله في الدنيا قديماً ولا حديثاً" [٣].

وبغض النظر عن الأسباب التي أدت لهزيمة علاء الدين محمد خوارزم شاه فقد عاد إلى خراسان أواخر سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧م وحين وصل لنيسابور أمر بقطع الخطبة للناصر وقال أن الخليفة قد مات[٤]، كما قطع خطبته في مدينة مرو سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م، وفعل الأمر نفسه في بلخ وبخارى وسرخس وجميع بلاد ما وراء النهر، أما خوارزم وسمرقند وهراة فإن خطبة الناصر ظلّت قائمة بها لأن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بشيء " إن أحبوا خطبوا، وإن أرادوا قطعوا"[٥].

وقبل أن ننهي هذا المبحث فاتني أن أذكر أن علاء الدين محمد خوارزم شاه كان قد اعتنق المذهب الشيعي، وكان يرغب في إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية، وأصدر فتوى بإبطال خلافة الناصر، ونصّب علاء الملك الترمذي خليفةً للمسلمين، وخطب له على منابر الدولة، وسكّ النقود باسمه، ثم أخذه معه لبغداد لتنصيبه فيها[٦].

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٩٨-٥٩٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٢٤.

٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٠٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٢٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٠١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٢٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٠٠.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٠١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٢٦.

(٦) براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص٥٥٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يتولى حكم الدولة الخوارزمية غياث الدين بن علاء الدين، وكانت سياسته نفس سياسة أبيه تقوم على الأمل بإخضاع بغداد، وللحد من تصرفات السلطان الخوارزمي الجديد عمل الناصر على تحريض خاله الأمير إيغان طائسي الذي كان من كبار الأمراء، وكان ذو رأي مسموع عند ابن اخته، فأقطعه الناصر البلاد سرّاً وعدّه من أوليائه، وأمره بالخروج على طاعة غياث الدين، ولكن الأخير استطاع هزيمة هؤلاء المتمردين[1].

وفي سنة ٦٢١ هـ /١٢٢٤م يصل جلال الدين منكبرتي للحكم، ويستمر على نفس سياسة العداء التي اختطّها من سبقوه، فعزم على قصد بغداد، لأن الناصر لم يجبه بإقامة الخطبة، فوصل لمدينة تستر وضيّق عليها، وبعد حصار دام شهرين سار فجأةً متوجهاً إلى بغداد، عندها أسرع جيش الخلافة لإعداد العدة، فنصب المجانيق على الأسوار، ووزّع السلاح على الناس، وفتحت الأهراء، وأنفق الخليفة ألف ألف دينار على تجهيز الجيش[2]، وقد حاول جلال الدين أن يعقد حلفاً مع الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، فكتب إليه قائلاً: " تحضر أنت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين، وفي هلاك أبي، وفي مجيء الكفار إلى البلاد؛ ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل"، ولكن المعظم رفض ذلك فبعث إليه: " أنا معك على كل أحد، إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين"[3].

وواصل جلال الدين سيره إلى بغداد حتى وصل إلى دقوقا، وحاصرها فصعد الأهالي إلى الأسوار ورموه منها، مما دفعه لتشديد الحصار عليها، وأخضعها عنوةً وأباحها لجنوده يعيثون فيها فساداً ويقتلون من ظل من أهلها، وهاجمت سرية خوارزمية مدينة تكريت، ولكنها فشلت في تحقيق النجاح، ورجع جلال الدين دون تحقيق أهدافه[4].

وهكذا رجع الخوارزمي دون تحقيق أهدافه، وكان رجوعه في أواخر خلافة الناصر سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥م وهي السنة التي توفي فيها الناصر.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٨٠.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٦٣٤.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٤٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٦١.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٦٣٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٦١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني : العلاقات مع الأتابكة

إن من أهم التقاليد المتّبعة في العلاقة بين الخلافة العباسية وأتابكيات الجزيرة والموصل في عهد الناصر أن يبعث كل أتابك جديد رسله وكتبه يلتمس الإقرار والتعيين من الخلافة، وأيضاً الخلع والتشريف[1]، ففي سنة ٥٧٦ هـ /١١٨٠م توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، وخلفه في حكم الأتابكية أخوه المولى السعيد عز الدين مسعود، فبعث أتابكه ومدّبر دولته الأمير مجاهد الدين قايماز فخر الدين أبا شجاع بن الدهّان البغدادي رسولاً إلى صلاح الدين يطلب إقرار عز الدين، ولم يستطع صلاح الدين ذلك إلا بعد أن أعلم الناصر بالأمر، وأذن بالموافقة على تقليد السلطنة للسعيد عز الدين[2].

وعندما توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل سنة ٦٠٧ هـ /١٢١٠م وعهد بالملك من بعده لابنه القاهر عز الدين مسعود، على أن يكون بدر الدين لؤلؤ أتابكاً له وقيّماً على شؤون دولته[3]، جاء الكتاب يستأذن الناصر في ذلك، " أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وأوطأه معاقد الملك وتيجانه..... وإذا توفي ولي من أولياء الدولة فمن السنة أن يعزى بفقده، ويستخرج إذنها في سليلة القائم من بعده ..... وهذا الأمر الذي تقمصه العبد لا يؤيه إلا بتقليد يأوي إلى ركنه ويصدر عنه إذنه..... وإذا ضم إليه لباس الخلعة الشريفة جاء الإنعام وهو يثني مثنى وحصل الفوز منه بالحسنيين"[4].

وفي سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه وتولى مكانه في حكم أتابكية الموصل ابنه نور الدين أرسلان شاه وأن يكون أتابكه بدر الدين لؤلؤ، وبعد أن أكمل بدر الدين اجراءات تنصيب نور الدين بعث للخليفة الناصر يطلب التقليد كما هي العادة، فأجابه الخليفة إلى ما طلب[5].

---

(١) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) رسائل ابن الأثير، بيروت ١٩٥٩ ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٣-٤٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٣٧.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٤٦.

(٤) ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص٢٤٢-٢٤٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٣٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣١٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٣٨-١٣٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من ناحية أخرى نجد بعض الأتابكيات كانت تستنجد بالناصر، فعندما زحف صلاح الدين الأيوبي على الموصل سنة ٥٧٨ هـ /١١٨٢م وضايقها أشد مضايقة، كتب صاحبها عز الدين مسعود ونائبه مجاهد الدين قيماز يطلبان الحماية من الخليفة الناصر، وعليه لم يتردد الخليفة الناصر في إنفاذ صدر الدين شيخ الشيوخ، وخاصه شهاب الدين بشير الخادم ومجموعة من خواص ديوان الخلافة، لحل هذا الإشكال، وإجراء الصلح بين الطرفين المتخاصمين، كما أوعزت الخلافة إلى مظفر الدين قزل أرسلان صاحب أذربيجان بأن يستغل مكانته لدى صلاح الدين ويرسل له متوسّطاً في الأمر، وقد حرصت الخلافة بكل ما أمكنت أن ترفع هذا الحصار، فاستجاب صلاح الدين لشيخ الشيوخ المرسل من قبل الخلافة، وقال صلاح الدين: " هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهب لوصولك الموصل"[١].

ولما علم الأتابك عز الدين صاحب الموصل ما حققه صلاح الدين من تقدم وانتصارات كان من أهمها السيطرة على آمد وحلب، خاف على نفسه وبلاده، فبعث إلى ديوان الخلافة يطلب إرسال شيخ الشيوخ وبشير الخادم للتوسط من جديد لدى صلاح الدين، وبالفعل جاء الوفد إلى صلاح الدين وهو في دمشق سنة ٥٧٩ هـ /١١٨٣م فأحسن استقبالهم، ولكن المفاوضات لم تثمر عن شيء[٢]، وبينما هم في طريق العودة عدل صلاح الدين عن رأيه وبعث للوفد عن طريق خواصه موافقته وعدله عن أخذ الموصل، إلا أن ابن الشهرزوري ركبه الغرور حين رأى ميل صلاح الدين للمسالمة، وامتنع عن حضور المجلس، بل إنه أغلظ القول لصلاح الدين، وهدّده بتأليب ملوك العجم عليه، فاستاء صلاح الدين من ذلك، وعزم على قصد الموصل وأخذها[٣]، وكذلك في سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٤م وقبل أن يغادر صلاح الدين دمشق لقتال الصليبيين بعث الناصر رسوليه السابقين وكلّفهما بالسعي والهمة لتقرير قواعد الصلح بين الطرفين، غير أن هذه السفارة لم تؤد إلى نتيجة أيضاً[٤].

وأيضاً قامت الخلافة بحماية أتابكية سنجار عندما قصدها الملك العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر سنة ٦٠٦ هـ /١٢٠٩م وضرب عليها حصاراً، فأرسل صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود إلى الخليفة الناصر يستنجد به، ولم يزل العادل

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١١٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٣٩.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٣٧٨.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٦٣.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٢٠٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٠-١٤١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يشـدّد الحصـار على سـنجار حتى وصـله رسـول الخليفة الناصر أسـتاذ الدار عضد الدين أبو نصر المبارك بن الضـحاك، يطلب منه رفع الحصـار، ولإقامة الصـلح، ولما كان الخليفة الناصر مصرّاً على رأيه، رفع العادل الحصار عن سنجار، وبعد ذلك ارتحل إلى حران[1].

ومن طرف آخر نجد أن الخلافة كانت تنهض لحل ومعالجة مشاكل الأتابكيات بالوسائل السلمية، فحين وقع النزاع بين مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه الأول من جهة، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحليفه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب خلاط من جهة ثانية، وذلك بين سنتي ٦١٥-٦١٧ هـ /١٢١٨-١٢١٩م بسبب امتلاك بعض القلاع المتنازع عليها مثل (العمادية والهكارية والزوزان)، مما نتج عنه نشوب بين حرب بين هؤلاء الأتابكة، فلما وصلت شكاياتهم إلى ديوان الخلافة بادر الناصر إلى رأب الصدع وإقامة الصلح بين المتحاربين[2]، وكان رسل الخلافة قد نجحوا في إبرام الصلح بين المتخاصمين، ثم توفي بعد ذلك نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل، وتولى مكانه أخوه ناصر الدين محمود، وكان عمره سنة ٦١٦ هـ /١٢١٩م ما يقرب من ثلاث سنوات، فظهرت مرة أخرى أطماع الأتابك عماد الدين زنكي ومظفر الدين كوكبري في أملاكه، وكانت نتيجة الحرب أن استولى عماد الدين زنكي على قلعة الكواشي، وبدر الدين لؤلؤ على تل أعفر، وتملك الأشرف سنجار ثم تركها قاصداً إربل حيث مظفر الدين كوكبري، وعندما وصل قرية السلامية (قريبة من نهر الزاب) وصلته رسل الخلافة ومظفر الدين كوكبري لعقد صلح جديد بين الجميع، يكون مضمونه إعادة جميع القلاع ما عدا العمادية إلى صاحب الموصل، وتظل القلعة المذكورة بيد عماد الدين زنكي أرسلان شاه، وفعلاً تم الصلح على هذا النحو، وعاد الأشرف إلى سنجار سنة ٦١٧ هـ /١٢١٩م[3].

وقـد بلغـت العلاقـة بين الخلافة والأتابكيات حداً حتى في الأمور الصـــغيرة البعيدة عن شـــؤون السياسة والحكم، فقد كتب مظفر الدين كوكبري ذات يوم سنة ٦٠٥ هـ /١١٩٨م إلى الخليفة الناصر

---

(١) ســبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٤١. ابن الســاعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص٢٨٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣١٤-٣١٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣١٧-٣٢٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٤-١٤٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يوصـــيه بـأحـد العلماء وهو الفخر بن تيميـة[1]، ويطلـب منه أن يأذن له عند عودته من الحج بـالجلوس الوعظ للـدرس ببـاب بـدر، وهو أحـد أبواب دار الخلافة، وذلك تكريماً له ورفعاً من شـــأنه، فاستجاب الخليفة الناصر لذلك[2].

لقد ظلت العلاقة بين الخلافة والأتابكيات يسودها الود والاحترام، فقد حصل أن قام مظفر الدين كوكبري باسـتدراج الأمير حسـن بن قفجاق صـاحب قلعة الكرخاني، ثم ألقى القبض عليه وتملك بلاده، والأمير حســن كـان تابعاً للخليفة الناصر، عندئذ كتب الناصر إلى صـــلاح الدين الأيوبي ســنة ٥٨٧ هـ /١١٩١م مسـتنكراً ذلك لأنه كوكبري حليف لصـلاح الدين، ويأمر أيضـاً بإعادة أملاك الأمير حسن[3]، ثم شـــعر مظفر الدين كوكبري بذنبه، فبعث إلى الخليفة الناصر ابن أخيه صـــحبة الجمال يونس بن بدران المصري رسـول الملك العادل بن أيوب صـاحب مصر والشام، فشفع رسول العادل في كوكبري لدى مؤيد الدين بن القمي نائب الوزارة، فقبل عذره، وأجيب سؤله فيه، ووقع الرضا عنه[4].

ولما جاء المغول وعلمت الخلافة بمسـيرهم إلى أتابكية إربل سـنة ٦١٨ هـــ /١٢٢١م، أوفد الناصر رسله إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وإلى الملك الأشرف موسى صـاحب خلاط، يطلب منهم الحضور بجندهم إلى دقوقا، لكي يجتمعون مع جيشه للدفاع، وأوكل مهمة القيادة الرئيسة للجيوش لمظفر الدين كوكبري، وأمدّهم بما تيسّر له من الجيوش بقيادة مملوكه قشتمر، ويبـدو أن اجتماع هـذه الجيوش قـد أعطـاهـا هيبـةً كبيرة، فـأثـارت الرعـب والخوف في قلوب المغول، فانسحبوا دون أن يحققوا أهدافهم[5].

---

(١) محمد بن الخضـــر بن محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي، مفسر وخطيب وواعظ، كان شيخ حران وخطيبها، مولده ووفاته فيها، من كتبه التفسير الكبير، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب، وترغيب القاصـــد، وبلغة الساغب، وشرح الهداية وديوان الخطب الجمعية، (ت٦٢٢ هـــــ /١٢٢٥م). الصـــفدي، صـــلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤ هـــــ /١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، ج٣، تحقيق أحمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ ص٣٢.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٥.

(٣) ابن شداد، يوسف بن رافع (ت٦٣٢ هـــــ /١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مصر ١٩٠٠ ص١٩٨.

(٤) ابن الســـاعي، الجامع المختصـــر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج٩، ص٢٨٧-٢٨٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٦.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٦٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا نجد أن العلاقة بين الخلافة والأتابكيات ظل يسودها الود والاحترام المتبادل، وتلبية النداء من كلا الطرفين، فعندما هاجم الملك الأشرف موسى بغداد، أسرع مظفر الدين كوكبري مؤيداً للخليفة الناصر، وسلّمه مفاتيح قلعة إربل وقلاعها في موكب مهيب، وردّت الخلافة على هذا الولاء بما يستحقه، فخلعت عليه خلع السلطنة، وأعادته إلى أربل مكرّماً، فزاد مظفر الدين على ذلك بأن قطع الخطبة للأيوبيين وقصرها على الخليفة العباسي[1]، ووضع وصية بأن تكون أتابكية إربل للخليفة العباسي بعد وفاته، وفعلاً هذا ما جرى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م عندما توفي حيث أصبحت من الأعمال التابعة للخلافة العباسية، وكان المستنصر هو الخليفة آنذاك[2].

المبحث الثالث: العلاقات مع الأيوبيين

حرصت الخلافة العباسة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع صلاح الدين، وعملت على ترسيخها وتقويتها، وفي ذات الوقت عملت على الحيلولة دون اتساع نفوذه في بلادها، ووجّه الناصر اهتمامه على استعادة سلطانه على البلاد التي انسلخت عنه.

لما تولى الناصر الخلافة سنة ٥٧٥ هـ /١١٨٩م بعث رسله إلى صلاح الدين، فبايع وأقام الدعوة له في جميع ما تحت يده من البلاد والثغور والشام ومصر، وأرسل كتبه يعبر فيها عن رغبته الأكيدة والصادقة في خدمة الخلافة العباسية، وهذا نص كتابه " والخادم - ولله الحمد- يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم؛ لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك؛ لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي أذخر الله للإساغة في سيفه ماءها، فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد إبراهيم فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الطاهر"[3].

وكان صلاح الدين لا يتصرف في شأن من الشؤون دون الرجوع إلى الخليفة وأخذ موافقته، فمثلاً في سنة ٥٧٦ هـ /١١٨٠م حين توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل وأجلس أخاه عز الدين مسعود

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٦٨.

(٢) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٥، ص٣٢٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٦-١٤٧.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ /١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة ٢٠٠٤ ص٣٢٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٤٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مكانه، وأرسل مجاهد الدين قيماز أتابكه رسولاً يطلب من صلاح الدين يقره على ذلك، فرد عليه صلاح الدين بقوله: " ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة الديوان[١] في ذلك"[٢]، ثم عجل بإرسال المطالعة للشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحيم[٣]، وقد تجاوبت الخلافة مع صلاح الدين فأرسلت إليه صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخادم الخاص إلى دمشق في شهر رجب بعد أيام من قدوم السلطان ومعه التفويض والتقليد والتشريف وكان وصوله إلى دمشق كيوم عيد فتلقاه السلطان بالتعظيم والتبجيل وترجل له وأبدى الخضوع، وقبّل الأرض عند إبلاغه سلام الناصر عليه، واحتفى بخلع الخلافة وتشريفاتها أيما احتفاء، ثم بعث الخليفة رسالة لصلاح الدين مع ضياء الدين الشهرزوري يعبر فيها عن الشكر والامتنان[٤].

وفي سنة ٥٨٧ هـ /١١٨٢م بعث صلاح الدين برسالة إلى الناصر يستأذنه فيها بالاستيلاء على حلب، وكانت حجتّه في ذلك أن أتابكة الجزيرة والموصل يسعون في تفريق الكلمة، ويحرّضون الصليبيين والاسماعيليين على قتال المسلمين[٥].

وكان صلاح الدين قد أرسل رسالة مطوّلة إلى دار الخلافة يشكو فيها صاحب الموصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، ويشرح بدقة متناهية أسباب شكايته، ومنها أن المذكور قد مدّ عين التعدي بالاحتواء على حلب ناقضاً بذلك الأيمان المبرمة " فإن حلب وأعمالها داخلة في ولايتنا دخولا يشهد به المثال وينطق بحقه المنشور العال الموقع له من مقر العظمة والجلال"[٦]، ويطلب من الخلافة أن توقفه عند حده " ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه"[٧]، ثم يقول بعد ذلك: " فإن أطاع وأناب ورجع عن الخطأ وعاود الصواب وترك الحق لأهله وأخذ الوفاء في سلوك سبله وإلا فما قصدنا إلا أن نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون والمشار إليه

---

(١) يقصد ديوان الخلافة العباسية.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٤.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٤.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٥١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥٠.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٢، ص١١٠-١١٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥١.

(٦) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٦٢.

(٧) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٦٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

متصـامم ونحن سـامعون..... وقد طالع الديوان العزيز بطبه مسـتشـفياً ولشرـح قصـته مستوفياً ولعذره في جميع الأحوال مبلياً ولا غناء عن نظره السامي ليكون للمراد متولياً" [١].

كما أن صـلاح الدين كان قد اسـتأذن من الخليفة الناصر في أخذ مدينة آمد قصبة ديار بكر، فأذن له بذلك، وبعث إليه بالخلع والتقاليد بولايتها، فقدم إليها سنة ٥٧٨ هـــ /١١٨٢م ولما تيسر له الاستيلاء عليها أرسـل إلى الناصر يعلمه بذلك، وأخبره أيضـاً بفتح ميافارقين صـلحاً، واعترف له أن ذلك تم بفضـل التقليـد الذي جاء من الخلافة بولايتها، وأن التقليد كان كما المفتاح لها، ثم التمس في رســـالته أن تأذن الخلافة له بفتح الموصل وماردين وأرزن وبدليس وغيرها، لأن حكامها اتفقوا على محاربته[٢].

ولكن الخلافة لم تسـتجب لصـلاح الدين بالرغم من إلحاح صـلاح الدين، وذلك للعلاقة الوطيدة بأتابكيات الجزيرة والموصـل ، وظل صـلاح الدين مصراً على ذلك، فأرسـل رسالة أخرى في طلب التقليد بالموصـل، ومما جاء في رسـالته: " ولو قبلت " الخلافة" مسـألته في تقليد الموصـل، لكان قد ولجها ولو بـدلحة أدلجها، وأخذها ولو بحصـــاة نبذها، وهو يتوقع في جواب هذا الفتح أن يُمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الأقلام، ونصر هو وافد الأمر وترشيد هو فك الحجر"[٣].

وعندما علم عز الدين مسـعود بميول صـلاح الدين وطموحه تجاه أتابكية الموصل، لانت عريكته ومال إلى الاستعطاف، فطلب من بغداد إرسال شيخ الشيوخ إلى صلاح الدين لإصلاح الحال، وكان صلاح الدين قد عاد من حصار الكرك إلى دمشق سنة ٥٧٩ هـ /١١٨٣م، حين وافاه رسول الخليفة الناصر، صدر الدين شـيخ الشيوخ وبدر الخادم، وبصحبتهما رسول صاحب الموصل ومفوضه القاضي محيي الدين أبو حامد محمد بن محمد الشـهرزوري[٤]، وخلع الخليفة الناصر لصـلاح الدين والملك العادل[٥]، ولكن هذه الوساطة لم تنجح، فأنفذ صلاح الدين ضياء الدين الشهرزوري إلى بغداد، وبعث معه هدايا ثمينة وتحف ومجوهرات، فاستقبله الخليفة بالمزيد من الحفاوة والتكريم، وقبل هديته بموجب رقعة كتب فيها

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٦٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥١.

(٢) الأيوبي، مضـــمار الحقائق وســـر الخلائق، ص١٣٦-١٤٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإســـلامية، ص١٥٢.

(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥ هـــــ /١٢٦٧م) عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ط١، ج٢، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٧ ص٤١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥٢-١٥٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٤٧٧.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٦٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخليفة الناصر ما يلي: " وقف على ما أنهاه من حضور رسول صلاح الدين كثر الله في الأولياء مثله وما ذكره من حال نصرته وذلك بنا وبآرائنا وهمتنا وما نفذ فقد شرف بقبوله"[١]، ومع ذلك ظل صلاح الدين يأمل بالموصل، واستغل ما حصل سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م حين أرسل له ابن زين الدين بن علي كوجك مستنجداً، ويخبر أن عساكر الموصل وعساكر قزل أرسلان نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قيماز ونهبوا وأحرقوا، فوجد صلاح الدين أن الفرصة قد حانت، فتوجه للموصل، وبينما هو في طريقه، جاءه رسول قلج أرسلان بن مسعود حاكم سلاجقة الروم، يحذره من أن ملوك الشرق كلهم قد اتفقوا على قصده إن لم يعدل عن الموصل وماردين، ولكن صلاح الدين لم يعبأ بهذا التحديد، مضى بطريقه حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات قريب من الموصل، لكي يسهل حصار المدينة[٢]، وكتب إلى الخليفة يخبره بذلك في الرسالة التالية: "..... فإن رسل المواصلة ما زالوا مترددين وللخديعة بالقول والكتب مجددين وهم في أثناء ذلك يراسلون الجوانب ويكاتبون الأجانب ويرتقبون النوائب وتذهب بمعاودتهم الأوقات وتحدث دون قصدهم الحادثات فهادن أنطاكية هدنة آذنت بغبطة الإسلام وخلص من طال إساره من ذوي الإقدام ورجال الشام ورأى أن المواصلة لا ينزلون عن المحتمين به ولا يرفعون أيديهم عن المعتصمين بسببه ومنهم صاحب الجزيرة وصاحب إربل ومن بتكريت والحديثة وغيرها وأنهم لا يقفون في المكر والخديعة عند أمد وأن رسلهم متناوبة إلى كل أحد...." [٣]، ويبدو أن الخلافة قد غضت الطرف هذه المرة عن استنجادا أتابك الموصل[٤]، فشدد صلاح الدين ضرب الحصار على الموصل، ثم مرض مرضاً شديداً اضطره للرحيل إلى حران، عندها جاءته رسل أهل الموصل للصلح، وبالفعل تم الصلح الذي وقّعه عن أهل الموصل بهاء بن شداد وبهاء الدين الربيب، وبموجبه عادت الموصل ضمن ولاياته في نطاق التبعية العامة للخليفة الناصر[٥].

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٨٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٢، ص١٦٦.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٢١٥.

(٤) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٦٤-٦٥.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٧٠-٧١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥٤-١٥٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا فإن صلاح الدين بقي محافظاً على الولاء للخلافة في بغداد، وكان يحرص على طلب التقليد لكل ولاية أو بلد يفتحه، ففي سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م استولى على حطين وعكا[١]، أمر العماد الكاتب فكتب رسالة إلى ديوان الخلافة يعلمه بفتحه[٢]، وكذلك عندما فتح عكا وارسوف وقيسارية وحيفا ونابلس وبيروت وصيدا وغيرها من الضياع والقرى والحصون والقلاع، بعث كتاباً إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك[٣].

وعندما حرّر بيت المقدس رفع عليها وعلى منبر جامعها شارة الخلافة العباسية، وخطب للناصر، وبعث له بالكتب مبشّراً[٤]، وعندما حاصر الصليبيون عكا سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م، ارتأى صلاح الدين أن يحشد لمواجهتهم أكبر جيش ممكن، فقد بعث كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء في مصر والشام والعراق وفارس، كما أنه كتب لصاحب المغرب، وحرص على أن يحيط الخلافة بكل دقائق الأمور، وذلك في أوقات متقاربة، وإن رسله لم تنقطع عن الخليفة الناصر، وكان يطمع من وراء ذلك أن يمده الخليفة بجيش للدفاع عن عكا، ولكن الخليفة الناصر لم يستجب لذلك، وأقصى ما استطاع فعله هو أنه أرسل سنة ٥٨٦ هـ /١١٩٠م الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد ومعه حملان من النفط، وحملان من القنا، وتوقيع بعشرين ألف دينار، تُقترض على دار الخلافة من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالدينار، وقد اعتذر صلاح الدين عن قبول التوقيع، فبعث رسالة للناصر جاء فيها: " كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان وأركب الرسول معه مراراً، وأراه مبارك النزال ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد والمجاهد"[٥].

وعندما وصلت الأنباء بخروج فريدريك بربروسا من ألمانيا سنة ٥٨٥ هـ /١١٨٩م أنه بعث إلى الناصر يظهر استعداده للنزول للخلافة عن بعض ولاياته، مقابل إمداده بالعسكر، وعندما أخبر قادته

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٧٥-٧٩.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٣٩٤-٤٠٠.

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٧٦-٨٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥٧.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٦، ص٤٩٦ وما بعدها.

(٥) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص١٤٩-١٥٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٥٧-١٥٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بذلك وأنه وعد الخليفة على لسان رسوله الشهرزوري بأن يعطيه شهرزور عابوا عليه هذا الرأي، فرد عليهم بقوله: " الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور"، ومع هذا لم يرسل الخليفة جيشاً بل أرسل حملين من النفط[1].

وعندما هزم صلاح الدين الصليبيين في بيروت وعسقلان وغزة والداروم وغيرها من البلاد سنة ٥٨٨ هـ /١١٩٢م، واضطرهم إلى عقد صلح وهدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر تبدأ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ /١١٩٢م وبدأ بتحصين الثغور، وإكمال أسوار القدس وخنادقه، فكتب بتفاصيل ذلك إلى الناصر مبيّناً له المزايا التي تعود على الإسلام والمسلمين من ذلك، ولقد بلغ من توثق العلاقة بين صلاح الدين والناصر أن اتفق مع الامبراطور البيزنطي اسحق انجيلوس الثاني ١١٨٥-١١٩٥م على إقامة الخطبة بجامع القسطنطينية للناصر، وأنفذ إلى هذه المدينة رسولاً من قبله يحبه خطيب للجامع، وعدد من القرّاء والمؤذنين، وأعطاهم منبراً، وجرت أول خطبة في هذا الجامع شهدها جمع كبير من المسلمين والتجار، وخُطب للخليفة الناصر، ثم جاء رسول من الامبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين وهو نازل على مرج عيون يخبره بانتظام الحال وتحقيق الآمال[2].

ومما سبق نلاحظ أن العلاقة ظلت علاقة ودية بين الخلافة العباسية ممثلة بالخليفة الناصر وبين صلاح الدين، إلا أن هذه العلاقة أخذ يشوبها الفتور في السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، وهناك شواهد تدل على ذلك، فقد كتب صلاح الدين لأول مرة إلى دار الخلافة يشكو من إعراضها عنه ونفورها منه، على الرغم من بلائه في الإسلام، فقال : " فما بال الخادم يشكو إعراضها عنه ومساعيه لديها مشكورة، ويرى حظه من عنايته قاصراً وخدمه على أبوابه مقصورة، أمن عدل القضاء أن يجعل الميزان الثقيل كالميزان الخفيف؟ .... كلا والله، لا يحسن المحسن إلا طلباً للثواب، ولا ترغب همم العاملين إلا إذا توقعت بذل الرغاب، إذا أغلق الديوان العزيز باب الجزاء فقد تعجل من طاعات الأولياء بإغلاق الأبواب"[3].

---

(١) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص١٥٠-١٥١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٦٠-١٦١.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص١١٥-١١٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٦١-١٦٢.

(٣) ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص٣١٠-٣١١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن يتابع مسـير الأحداث يجد زيادة النفرة بين الخلافة وصـلاح الدين، ولما أحس الناصر بذلك بعث إلى الملك العادل أخي صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ /١١٩٢م يدعوه للقيام بوساطة لعل الأمور تعود إلى مجاريها، والحال إلى سابق عهده ويعده بذلك وعوداً عظيمة، وأنه سيكون له بذلك يد عند الخلافة يستثمرها متى شاء، وكانت الرسالة تطلب إلى العادل أن يستعطف قلب صلاح الدين إلى الخدمة الناصرية، والدخول بينه وبين الديوان العزيز بالخبر، والإنكار عليه في تأخير رسله عن الخليفة، وكان العادل قد أبلغ محتوى الرسالة لصلاح الدين، فاقترح تسيير القاضي الفاضل إلى بغداد " في تقرير قواعد لا تتحرر بين الخلافة وصلاح الدين إلا به"[١]، ولكن صلاح الدين تدارك الأمر وبعث برسالة إلى الخليفة الناصر يعتذر فيها عن تأخير الكتب[٢]، وأتبعها بعد ذلك برسالة أخرى تنصّل فيها عن جميع ما أخذ عليه وما نسبته الخلافة له من فتور في مشاعر الود والولاء تجاهها[٣].

ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ /١١٩٣م آلت السلطنة إلى ابنه العزيز عثمان عماد الدين، ودمشق إلى ابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الظاهر غياث الدين غازي، والكرك والشوبك وما والاها للملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب[٤]، وقد سار الجميع على منهج صلاح الدين في موالاة الخلافة، فكان أول عمل قام به الأفضل حين توفي أبوه أن كتب للخلافة يخبرها بذلك، ويرسل لها ميراثه، وأنفذ إليها الهدايا والتحف والخيل والطيب وغيرها من الأشياء الثمينة التي قدّرت بالآلاف[٥]، وطلب من الخلافة أن يهبه خلع الولاية والتشريفات، وكان رسوله إلى بغداد حينها هو القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى الشهرزوري، كما جدّد نقش الدينار والدرهم برسمي الخليفة الناصر وولي عهده، عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد[٦].

وعندما اجتمع أتابكة الجزيرة والموصل على محاربة الملك الأفضل وأخذ بلاده وبلاد عمه الملك العادل، وأحرز الأيوبيون النصر عليهم، بعث إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك ويعترف له أن هذا النصر

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٦، ص٥١٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٣، ص٨١-٩٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٦٥-١٦٦.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢١.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، ص٥-٨.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، ص٥-٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٦٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي حققه الأيوبيون إنما يرجع إلى بركات " استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة، وبيُمن الائتمار بأوامرها"، وكذلك رأى الملك الأفضل بعد أن تآمر عليه عمه الملك العادل وأخوه الملك العزيز عثمان وانتزعا منه دمشق وعوّضاه عنها بولاية صرخد، أن يبعث للخليفة الناصر يشتكي على إخوته ويطلب منه التدخل لإعادة أملاكه، وعلى الرغم من أن الخليفة الناصر قد وعده بالنصر إلا أنه اعترف بعمه العادل، وأرسل إليه الخلع والتشريف والتقليد[1].

أما علاقة الناصر بالعادل فقد ظلت ودية يُعبر عنها بتبادل الهدايا والرسائل بين الطرفين حتى توفي سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م، وعندما توفي أمر الخليفة الناصر احتراماً له بالنداء في بغداد " من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر"، وأقيمت عليه فيه صلاة حاشدة حضرها الناس على مراتبهم، كما جرت عليه أيضاً صلاة الغائب في جميع مساجد بغداد[2].

وفي عهد الكامل زادت أواصر المحبة بين الطرفين، فلما حاصر الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م بعث الكامل بشيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه رسولاً إلى الخليفة الناصر يستعين به ويستنجد به، مع أن الخليفة لم ينجده لا بمال ولا بعسكر، فأرسل إلى سائر ملوك الأطراف يطلب منهم النجدة[3]، ولكن مع ذلك شاب العلاقة بعض الفتور في السنوات الأخيرة من عهد الناصر، وتجلى ذلك في عدة حوادث، ففي موسم الحج سنة ٦١٩ هـ /١٢٢٢م أمر أطسيس بن الملك الكامل الملقب بالملك المسعود الجنود بعدم رفع علم الخليفة الناصر على جبل عرفات، ورفع علم أبيه الكامل بدلاً منه، وحرّض أصحابه على كسر علم الخليفة إن حاول الركب العراقي رفعه، بل إنه حضّ على النهب، وظل هو وأصحابه يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي، حتى أوشكت الشمس على الغروب وعندئذ أرسل ابن أبي فراس أباه وكان شيخاً كبيراً يذكّر الملك المسعود بما يجب عليه من طاعة الخليفة ولزوم أوامره[4].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج٣، ص٦٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١١٢-١١٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٧٠-١٧١.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٢٥.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٣٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٧٢-١٧٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الملك المعظم فظل على ولائه للخليفة حتى وفاة الخليفة سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥م فوقف إلى جانبه عندما هدّده جلال الدين منكبرتي، وبعث إليه: " أنا معك على كل أحد، إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين"[١].

وكذلك كانت العلاقة طيبة بين الناصر والملك الأشرف موسى بن الملك العادل، ويبدو أن الأشرف كان ذا مكانة خاصة لدى الناصر، فكان يخلع عليه الخلع في شتى المناسبات ويطلعه على بعض الأمور الخفية التي لا يبيحها لغيره من الملوك والأمراء، ويبعث بها إليه مع أحد التجار البغداديين وهو أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك الجلاجلي[٢].

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٤٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٦١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٧٤.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٩٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص١٧٤-١٧٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الرابع

سياسة الخليفة الناصر لدين الله في المجتمع من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

المبحث الأول: فئات المجتمع

يتكون المجتمع الإسلامي من طبقتين، تنضوي تحت كل واحدة منهما عدة طبقات، أولاً الطبقة الخاصة ويتصدّرها الخليفة العباسي ويعاونه عدد من كبار رجال الدولة، وكان الخليفة من بني العباس من أرفع الناس قدراً لهم رواتب ثابته يتفاضونها من بيت المال، وقد ذكر ابن جبير الذي زار بغداد سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٥م زمن الخليفة الناصر أن جميع العباسيين كانوا يسكنون في دار الخلافة ببغداد الشرقية، وكانت لهم مرتبات قائمة[١]، ولا بد من الإشارة إلى نقيب العباسيين ونقيب الطالبيين، وهما أيضاً من الطبقة الخاصة " وكل منهما عظيم القدر جليل الشأن "، ويلي الهاشميين في الدرجة كبار موظفي الدولة ويتقدّمهم أستاذ الدار الذي أوكلت إليه مهمة شؤون دار الخلافة واحتياجاتها المالية، ومما عهد به إليه أبواب الخليفة وديوان الأبنية وخزائن السلاح ورجال الأبواب وما يتعلق بذلك، يذكر ابن جبير في رحلته ما يلي: " وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار، هذا لقبه، ويدعى له إثر الدعاء للخليفة، وهو قلما يظهر للعامة اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلاً ونهاراً " [٢].

ولا يمكن أن نتغاضى عن قاضي القضاة الذي تكون مهمته بطبيعة الحال حل النزاعات والخصومات، ومما اختص به أيضاً حفظ مال الأيتام حتى يبلغوا سن الرشد[٣]، ويقول ابن جبير أن الخليفة لم يكن له وزير بل أشبه بنائب وزير تكون مهمته " يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور[٤] "، ولا شك أن في هذا الأمر دلالة على قوة الخليفة الناصر.

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨١-١٨٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١١.

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٢٥.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن طبقة الخاصة أيضاً الشرابي، وأيضاً صاحب ديوان الزمام وكان ذا مكانة رفيعة في الدولة، فقد وصف بأنه صدر الصدور وخالصة الإمام، وسيد أصحاب الأقلام، وصاحب البلاد، وهو من أقرب المقربين إلى الخليفة، الملازمين لسدّته سفراً وحضراً، وكانت لمكانته هذه تنشر خلفه الأعلام، وتضرب خلفه الطبول، ويخدمه مشرف وخازن وعدد من الموظفين والحجّاب[1].

ولا ننسى حاجب الباب وهو كما يقول ابن الساعي: " صاحب سيف الإمام المتفرد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام، فمن سرق قطعة ومن انتهك الحرم ردعه، ومن قتل قتله، واقتص للمظلوم ممن ظلمه..... [2]".

وهناك عارض الجيش ويُلقى على عاتقه الاهتمام بمصالح الجنود، والتفريق بين الجيد والحسن منهم عند تجنيدهم، ومن أبرز من تولى هذه المهمة في عهد الناصر عارض الجيش ابن الدرانج[3]، ويرد في المصادر دائماً مصطلح " باب الخاصة"[4]، وهذا يؤكد أن مدخل الخاصة كان منفرداً.

ويُذكر أن الناصر لدين الله كان على علاقة جيدة مع العلماء والأدباء والشعراء، ففرض لهم الأعطيات والرواتب، وأوكل للبعض منهم مناصب هامة في الدولة العباسية في زمنه، وكان دؤوباً على حضور المجالس العلمية ومكرماً للعلماء، وقد أشارت المصادر إلى أنه جمع كتاباً في الأحاديث النبويّة سماه (روح العارفين) وروى عن شيوخه بالإجازة[5]، وأجازه للأكابر، فكتب: " أجزنا لهم ما سألوا على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين"[6]، وفي هذا دلالة على أن الناصر كان عالماً ومحباً للعلماء.

---

(١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١٣.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٥٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١٤.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٢١٠.

(٤) الصابئ، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت٤٤٨ هـ /١٠٥٦م) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، الاسكندرية ١٩٩٠ص١٦. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٣، ص٢٨٠.

(٥) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠ هـ /م١١٨٥م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠١ ص٢١.

(٦) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨ هـ /١٣٤٧م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط٢، ج٤٣، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٣ ص٢٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما الطبقة الثانية من المجتمع فهي ما يطلق عليه تسمية العامة، لم تأت المعاجم العربية على معنى واضح ومحدد لكلمة العامة، ولم تزد عن قولها إنها خلاف الخاصة[1]، وبالفعل لا خلاف بأنها الفئة التي تقابل الفئة الحاكمة وتضم التجار والصناع والكسبة ومن لا عمل لهم وتتركز أهداف هذه الفئة على نشر الأمن ورفع الظلم وتأمين الخبز[2].

وتشتمل العامة أيضاً على الخدم والموالي والعبيد وأصحاب الغناء، وكان أغلب الخدم من الروم والترك والصقالبة والأرمن بمعنى أنهم كانوا من غير العرب، وكانوا يُحضرون بالعادة من سمرقند وبلاد ما وراء النهر، وقد ساد اتخاذ الرقيق خدماً في هذه الفترة وبعض الرقيق كان له أثر في الحياة السياسية[3].

وشملت هذه الطبقة أيضاً أهل الحرف وأرباب الصناعات المختلفة كالحدادين والحاكة والنجارين والغزّالين والصيادين والطحانين، وأصحاب المهن التجارية الصغير كالبقالين والعطارين والجزارين والزياتين، وكان أصحاب هذه الطبقة ينحدرون من أصو مختلفة كالفرس والترك والروم والديلم والروم والنبط والأرمن والشركس والأكراد والكرج، وغيرها من الأصول والمنابت[4].

ومن أهم فئات العامة في هذا العصر- فئة العيارون والشطار، العيار، صيغة مبالغة ومن معانيه أن يقال عار الرجل في القوم إذا عاث وعاب، أو إذا ذهب وجاء بعضهم بالسيف[5].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٢٦.

(٢) ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢١ هـ /٩٣٣م) جمهرة اللغة، ط١، ج١، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧ ص١٥٧.

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٢٥-٦٢٧.

(٤) العمري، أكرم ضياء، العامة في أواخر العصر العباسي، ع١١، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٦٨ ص٣.

(٥) الزبيدي، تاج العروس،ج١٣، ص١٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والعيار هو الرجل الذكي الكثير المجيء والذهاب في الأرض والنشـــيط في المعاصي [١]، فلفظ العيار هو نعت للرجل الفتن الســن النشـيط في المعاصي أو في طاعة الله تعالى يضـارع الأسـد شـجاعة وجرأة وجسارة وإقداما [٢]، فكلمة عيار تستخدم للمدح حيناً وللذم حيناً آخر.

والشـاطر من شطر، ويقال شطر فلان على أهله إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً أو مخالفاً [٣]، وقول الناس (فلان شـاطر) معناه أنه أخذ في نحو غير الاسـتواء، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء [٤]، فلفظ الشاطر يطلق على الرجل الواسع الحيلة والدهاء والذي بعد أو أبعد عن أهله واقترب من الله بالطاعة أو بعد عنه بالمعصية [٥].

وقد أنصـفهم الدوري إذ بين أنهم يمثلون طائفة من طبقة العامة ظهرت نتيجة التباين الاقتصادي الطبقي وسـوء الوضـع المعاشي وأن ثورتهم هي ضـد الأسياد والسياسيين وأسياد والمال، وأن لهم مبادئ أخلاقية يســـيرون عليها مثل العفة وعدم المجون والأمانة والرفق بالفقراء والضـــعفاء والكرم والصـــبر الشـديد على احتمال الأذى، هذا في حين أن من المؤرخين عجز عن إدراك روح حركتهم وفهما فسـموهم لصوصاً منحطين[٦].

إن رأي النجار في أن الصـــعلكة الجاهلية والشـــطارة والعيارة في العصرــ الإســـلامي متداخلتين متواصـلتين باعتبار أن كل منها يسعى لتحقيق فكرة إنسانية ونزعة اشتراكية تحملها حكاياته وأقاصيصه إلى الشـعب البسـيط الذي راح يرددها في العصرـ الجاهلي من قبل أن يردد حكايات الشطار والعيارين [٧]، هو رأي صـــائب فلا فرق جوهري بين الحركتين يجمعها الثورة على الســـلطة والمجتمع وحلم بعدالة يحظى بها الجميع.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٦٢٠.

(٢) عبد المولى محمد أحمد، العيارون والشـــطار البغاددة في التاريخ العباســـي، مؤســـســـة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٦ ص٣٧ .

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٤٨.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، ص١٧١.

(٥) عبد المولى، العيارون والشطار، ص ٣١.

(٦) الدوري، عبد العزيز، دراســـات في العصـــور العباســـية المتأخرة، مطبعة السريان،، بغداد ١٩٤٥، ص ٢٨٢- ٢٨٤ .

(٧) النجار، حكايات الشطار، ص ١١٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحين يأتي الخليفة الناصر لدين الله ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م يجد أن هؤلاء الفتيان والعيارين قوة فاعلة في المجتمع فيحاول السيطرة عليها وتوجيهها لخدمة الدولة وكان بدء ذلك سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م حين لبس سراويل الفتوة، وشرب شراب الفتوة (الماء والملح) للشيخ عبد الجبار[١].

وانتشرت الفتوة بين أهل بغداد بعد أن دخلها الناصر انتشاراً كبيراً، فدخل فيها أعداد كبيرة من الناس الخاص منهم والعام فدخلها العلماء والفقهاء والأعيان والأجناد وعامة الناس [٢].

ودخل الكثير من العوام من بغداد في الفتوة فأدى ذلك إلى ظهور نوع من التنافس بين فتيان المحال المختلفة، حيث أخذ فتيان كل محلة يحاولون إظهار شجاعتهم مما أدى إلى وقوع الفتن وأحداث الشغب فيما بينهم مثلما حصل سنة ٦٠١ هـ /١٢٠٤م [٣]، وكذلك الشغب الذي أحدثوه سنة ٦٠٤ هـ /١٢٠٧م حيث قتلوا أحد النقباء بباب الشحنة ببغداد مما شكّل صداماً حاداً بينهم وبين السلطة العباسية[٤].

وإن انتشار الفتن بين أحزاب وجماعات الفتوة، جعل الناصر يقوم بتوحيد هذه الأحزاب في جماعة واحدة يرأسها بنفسه، فأهدر الفتوة القديمة وجعل نفسه القبلة لأهل الفتوة والمرجوع إليه في ذلك[٥].

وبعد أن وحَد الناصر تنظيمات الفتوة في تنظيم واحد، وجعل نفسه قبلة أهل الفتوة، وربط جميع فتيان بغداد بشخصه أراد أن ينشر الفتوة خارج بغداد، وأن يضم أمراء الأطراف إلى فتوته، ويربطهم بشخصه، وكان الناصر قد توجه هذا التوجه منذ سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣م حين أرسل سراويل الفتوة إلى الملك العادل وأولاده[٦]. فكان العادل بذلك أول من ارتبط بفتوة الناصر من أمراء الأطراف، ولكنه الناصر لم يتوسع في إرسال سراويل الفتوة إلى الأطراف رغم أن بعض ملوك الأطراف أرسلوا إليه

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٨٦.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٠٧.

٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٦-١٤٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣١٨.

(٥) ابن الساعي، تاريخ ابن الساعي، ج٩، ص ٢٢٢.

(٦) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٥١. الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي، أخو السلطان صلاح الدين من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، كان نائب السلطنة بمصر عن أخيه صلاح الدين أثناء غيبته في الشام، أصبح لاحقاً هو سلطان الدولة الأيوبية (ت٦١٥ هـ /١٢١٨م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٧٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يسألونه أن يشرفهم بلباس الفتوة فقد أرسل إليه الملك الظاهر ت٦٠٣ هـ /١٢٠٦م صاحب حلب رسالة يطلب فيها أن يمنحه لباس الفتوة وأن يلحق بالخواص (الذين استجد لهم شعار خصوا باسمه وعرفوا بوسمه وقسم لهم من العناية بسببه ما لم تطمع الحظوظ في قسمه) [١].

ومن العامة أيضاً أهل الذمة من نصارى ويهود وأهل ذمة، ومنهم من شغل أعلى المناصب في الدولة، ومنهم من كان شاعراً أو أديباً، واشتغل البعض منهم بالحرف والمهن التجارية الصغيرة، ومنهم الأطباء وأرباب المعايش من عطارين وكسّارين وتجّار، وأصحاب حرف ثمينة كالصياغة والصرافة[٢].

قبل أن يتولى الناصر الحكم بمعنى أثناء حكم الخليفة المستضيء لا يوجد إشارة إلى أي خطوة من الخلافة تجاه أهل الذمة، باستثناء موقف واحد فقط اتخذته الخلافة لضبط الأمور وتهدئة العامة، ففي سنة ٥٧٣ هـ /١١٧٨م جاء قوم من أهل المدائن يشكون من يهود المدائن الذي اشتكوا من صوت الأذان بأنه مزعج لهم، فأدى هذا الاحتجاج إلى عداوة بين المسلمين واليهود في المدائن، وجرى نوع من الاقتتال، فجاء المسلمون إلى بغداد طالبين العون والاستغاثة، وعندما لم تتخذ الخلافة أي خطوة تجاه هذا الأمر فإنهم اتجهوا للعامة وطلبوا عونهم، ثم ثار العامة على الجنود وخرجوا إلى الأسواق، ونهبوا دكاكين اليهود، ونهبوا كذلك كنيس اليهود الذي بدار البساسيري، وكسروا الشبابيك ومزّقوا التوراة وأحرقوها، واختفى اليهود وما تجرّأ أحد من اليهود، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد إجراءات عدة قام بها الخليفة، حيث أمر بهدم الكنيس الذي بالمدائن وحوّله مسجداً[٣]،

في سنة ٥٧٨ هـ /١١٨٣م كان الناصر قد منع استخدام أهل الذمة في دواوين الخلافة، لأنه كان يرى ذلك إذلال للمسلمين، وقال حين أشار عليه أستاذ الدار أن يستخدمهم وأنه من المصلحة أن يستعملهم في الوظائف : " ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بيت المال ولا يبقى أحد من الكفار في شيء من الأعمال فأخرج جميع من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض...." [٤]، ولكن الناصر تراجع عن هذا القرار سنة ٦٠٥

---

(١) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) رسائل ابن الأثير، ط١، ج٢، تحقيق هلال ناجي، دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٨٢ ص١٣٤-١٣٧.

(٢) سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص١٧٢-١٧٣.

٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٤٠، ص٢٠.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٧٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هـ /١٢٠٨م فأحسن معاملتهم وأوكل إلى دانيال بن العازر بن هبة الله بأن يكون رأس الجالوت[١] عند اليهود، وذلك مكان العازر بن هلال الدارج وكتب له بذلك كتاباً، وأن يكون له النظر فيما كان للدارج، وأن يرعى كل مصالح اليهود، وقد بلغ عدد اليهود سنة ٥٨١ هـ /١١٨٦م ما يقرب من ستمائة ألف يهودي، ففي بغداد وحدها كان هناك ألف من اليهود[٢].

إنه لا توجد أية إشارة خلال النصف قرن التي حكمها الناصر إلى إلزام أهل الذمة بلبس الغيار[٣]، بل هناك إشارات تبين ما عليه من خير ورغد في العيش، فهذا أحد الفقهاء وهو ابن فضلان يرفع رسالة إلى الناصر يعبر فيها عن احتجاجه على ما بلغه أهل الذمة في بغداد، فقال: " ما لأهل الذمة من الحرية الزائدة، والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسلمين.... ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام .... ثم ما زالوا على اختلاف الزمان يؤخذون بالصّغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم ... فهؤلاء قد حطّ عنهم هذا كله ... وهؤلاء في أكثر البلاد يلزمون بالغيار[٤]، وهذا عمرو بن متى يقول في ترجمته للجاثليق يابالاها (٥٨٦-٦١٩ هـ /١١٩٠-١٢٢٢م) بأن النصارى كانوا في زمنه يحظون بعيش هنيْ[٥].

المبحث الثاني: الأعياد والمواسم

اهتم الخليفة الناصر كغيره من الخلفاء العباسيين بهذه المناسبات الاجتماعية والدينية، فقد كان يخرج على رأس المحتفلين بعيدي الفطر والأضحى في موكب بمزيد من الأبهة والعظمة، وذكر لنا الأيوبي في مضمار الحقائق هيئة خروج الخليفة فقال: " فخرج الخليفة وعليه جبة بيضاء وطيلسان أبيض وبين

---

(١) إن ريش جالوتا هي لفظة آرامية تعني رأس الجالية، وعنها أخذ العرب لفظة رأس الجالوت، ومنذ أن استقر اليهود في العراق بعد سبي بابل كانوا يوكلون أمورهم لعميد يرجعون إليه في أمورهم والذي أصبح يُعرف فيما بعد برئيس الطائفة. التطيلي، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٢ ص.

(٢) سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص١٧٢. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٠-٣٢١.

(٣) الغيار هو علامة أهل الذمة كالزنار للمجوس ونحوه. الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص٢٨٩.

(٤) ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق بشار عواد ومعروف وعماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧ ص٦٨.

(٥) متى، عمرو، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، (د.ن) روما ١٩٩٦ ص ١١٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يديه أستاذ الدار أبو الفضل ...." [1]، بينما يكمّل لنا ابن جبير هذا الوصف قائلاً:" لابساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للبّاس مما هو كالفنك وأشرف....." [2]، وجرت العادة أيضاً أن يخرج الخليفة وبين يديه أستاذ الدار والخدم وبين يديه عن يمينه وعن شماله الأمراء وأرباب الدولة عن طريق باب النصر والمكوث في بستان الأربعين، ريثما يخرج لهم الخليفة، فإذا خرج قام الناس وقبلوا الأرض وخدموا ودعوا، يتقدمهم نائب الوزارة، ويقف العامة على طرفي الطريق لمشاهدة الموكب، وتحيته وهو في الطريق إلى المسجد لأداء الصلاة، وينادون للخليفة : " السلام على نور أمير المؤمنين ونور الإسلام"[3]، وكانت بغداد تتزيّن بالأقمشة والأعلام ذات الألوان الزاهية، وتدق الأبواب، فإذا قضيت الصلاة عاد الخليفة فجلس في داره، " واستعرض الموكب بأهله وصغاره والملوك في أحسن زينة وأبهى حلة وأعظم سكينة فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل، في جمع كنجوم الليل، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاة..... [4]".

أما الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حرص عليه الخلفاء العباسيين منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بعد أن كان ذلك بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى[5]، وكان من أشهر المحتفلين به الأمير مظفر الدين كوكبري[6] صاحب إربل، فكان يصل بلاطه ابتداءً من رأس كل سنة هجرية أي في شهر محرم عدد كبير من الفقهاء والصوفية والعلماء من بغداد والموصل والجزيرة ونصيبين وبلاد فارس، وفي كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان صورة واضحة عن احتفال مظفر

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٠.

٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٢.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٠.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٤٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٣١-٣٣٢.

(٥) سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص١٨٤.

(٦) مظفر الدين كوكبري بن زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين التركماني، صاحب إربل، وولي إربل بعد وفاة أبيه، وأقام بها مدة، وانتقل منها إلى الموصل، ثم دخل الشام، واتصل بالملك الناصر صلاح الدين، فأكرمه كثيراً كان له اشتغال بالحديث (ت٦٣٠ هـ /١٢٣٣م). ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط٢، ج٦، دار الكتب والوثائق القومية، مصر ٢٠٠٥ ص٢٨٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الـدين وأبهتـه والعطـاء الـذي كـان يمنحـه " فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيراً زائداً عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والمغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يشرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان، المختلفة فإذا كانت ليلة المولد عمل السـماعات بعد أن يصـلي المغرب في القلعة ثم ينزل وبين يديه من الشـموع المشـتعلة شيء كثير، وفي جملتها شـمعتان أو أربع من الشـموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصـوفية، على يد كل شـخص منهم بقجة[1]، وهو متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤسـاء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصـب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضـع الذي فيه الناس والكرسي، وشـبابيك أخر للبرج أيضـا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتسـاع، ويجتمع فيـه الجند ويعرضـهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضـهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك، ويكون سـماطاً عاماً فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصـف، ويمد سـماطاً ثانياً في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي....." [2].

وفي شهر رمضان كان يتم الاحتفال به كذلك، فكان يفتتح بالإنعام على شيوخ الصوفية والعلماء والفقهاء، ويُعطون العطايا والمنح الجزيلة، وتفتح دور المضـيف التي بناها الناصر للفقراء والمسـاكين، وكـل ذي حـاجـة لتنـاول الطعام عند موعد الافطار، وتشـبّه الأمراء والوزراء والأعيان بالخليفة فكانوا يفتحون أبواب قصـورهم ليفطر عندهم ذوي الحاجة والفقراء، وكانت ليالي هذا الشـهر تزان بالمصابيح وتحفل المسـاجد فيها بالصلاة، أما عامة القوم فكانوا يسهرونها في لهو وغناء ومرح، إلى أن ترفع قناديل السحور، وهكذا حتى يبقى من الشهر أربع ليال، فحينها يقوم صاحب بيت المال بتقديم خلع الخليفة

---

(١) البقجة هي صـــرة كبيرة ملونة من القماش توضع فيها الملابس والخلع ونحوها. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٤ (هامش).

(٢) ابن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان، ج٤، ص١١٨-١١٩. محمـــد، عودة الروح للخلافـــة الإســـلامية، ص٣٣٣-٣٣٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الناصر إلى صـــدور الدولة والملوك وأرباب المراتب وولديه، ويمتد إنعام الخليفة ليشـــمل العام والخاص " فقل من لا ينال منها نصيباً، وفي البعيد من لا يكون منها قريباً"[1].

أما موسـم الحج فهو موسـم يُحتفل به في كل عام، فيتجمع الحجاج كلهم في بغداد حيث تفتح لهم دور الضـــيافة التي بناها الناصر، فإذا آن وقت الخروج للحجاز ضربت على دجلة الحياض والروايا، فيخرج الحجـاج عنـدهـا على اختلاف أجنـاســـهم وأعمارهم وأنواعهم، منهم الفتى والفتـاة والشـــيخ والشـــيخة، وفيهم الماشي على قدميه والراكب على جواده، يقول الكازروني: "فأول ما يقدمها القلم وهو محمل الخاص وبعده الكوس، وجند السـفر والنوبة المكية في الأثر، تتهادى بين الحجاب والدعاة والقرّاء في أحسن الصفات، ثم يتوالى كل يوم سبيل بعد سبيل ورحل كل جهة محمل جميل، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج، فيخلع على الأمير ويكلّل، وينعم عليه ثم يُحمل، فيخرج من ساعته ويدخل الحـاج في طـاعته، فإذا عادوا من الحج احتفل بهم كما حدث في وداعهم، وأفيضـــت التشرـــيفات على الحـاشـــيـة والولاة، وأظهرت كـل أسرة الفرح والرضـــا بســـلامـة من حج من أفرادهـا، ورحّبـت به في عودته....." [2]

المبحث الثالث: مجالس الخليفة الناصر

كان لكل خليفة مجلس يحضره الأدباء والشـعراء والندماء، وقد شرح النويري في موسوعته نهاية الأرب في فنون الأدب شروط من يكون نـديمـاً للخليفـة، إذ ينبغي للنـديم أن يكون كأنما خلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لا يملّ المعاشرة، ولا يسأم المسامرة؛ إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يبقظ، ويكون كـاتما لسرّـه، ناشرا لبرّه..... [3]" ولم يكن الخليفة الناصر مختلفاً عن غيره فقد كان له مجالس يحضرها العلماء وكبار رجال دولته، وذكر الأيوبي أنه في سنة ٥٧٨ هـــ /١١٨٢م أن الخليفة أمر بإحضار جماعة من الندماء والجلساء إليه كان كثير الميل إليهم وكان في جماعتهم أبو الحسن بن

---

(١) الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧ هـــــ /١٢٩٨م) مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق ونشر ميخائيل عواد وكوركيس عواد، وزارة الإرشاد العراقية، بغداد ١٩٦٢ ص٢٥-٢٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٢) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباســية، ص٢٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٣) النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٣٣ هـــــ /١٢٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، ج٤، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤ ص١٢٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكرخي فكان كثير الجلوس عنده بحيث لا يفارقه...[1]"، وعقد مجلس غناء ودعا إليه نجاح الشرابي وابن الكرخي ومحمد بن يحيى الفرّاش، وغيرهم من كبار الأمراء والمماليك والجلساء، وأمر بإحضار نويسة المغنية وعائشة السوداء وتبسّط في مجلسه، ومزح مع ابن الكرخي مثنياً على غناء زوجته عائشة السوداء[2]، ومنها كذلك مجلسه الذي عقده سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠م بعد مرور شهر على وفاة المستضيء بأمر الله، وحضره فخر الدولة بن عبد المطلب أحد كبار العلماء وأستاذ الدار وبهاء الدين صندل الخادم، وكل من كان يختص بديوان الخلافة من أرباب الدولة والأجناد، وتطرقوا في هذا المجلس للحديث عن السياسة والحكم، وفي هذا المجلس أراد الناصر من فخر الدولة بن عبد المطلب أن يكون له وزيراً ومشيراً، ولكن يبدو أنه اعتذر عن ذلك، وتم تنصيب سليمان بن جاووش نائب وزارة[3]، وكانت بعض من هذه المجالس تعقد في منزل الشيخ عبد الجبار الذي كان مقدّماً للفتيان والذي كان منزله أشبه بصومعة تحت بغداد، وهنا يكثر الحديث عن الفتوة ومعرفة الفتيان، ويحضر المجلس الشيخ عقاب صهر عبد الجبار، ومن يحضره الخليفة معه، وكان الناس يمضون إلى الشيخ عبد الجبار ويزورونه ويخدمونه ويتقربون إليه الأجل الخليفة [4]، وكان الناصر يمنع أن ينشر ما يدور من حديث وأخبار في هذه المجالس فهي بمثابة أسرار دولة، ففي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٥م كان أبو الحسن بن الكرخي يذكر جميع ما يكون من أحوال تجري في خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك في الأسواق فنهاه الناصر عن ذلك[5].

وفي سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٥م أيضاً شهد ابن جبير مجلس رضي الدين القزويني[6] فقيه الشافعية، ومدرّس المدرسة النظامية، وفي نفس المدرسة حضر مجلساً آخر لنفس الشيخ، وحضره خاصة بغداد وعامتهم، وأجاب الشيخ في نهاية المجلس على كل الأسئلة التي وجّهت إليه، وظهرت آثار مجالسه

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٨٤.

(٢) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٨٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٣.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٣-١٤.

(٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٧٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٣.

(٥) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص١٨٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٤.

(٦) أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني رضي الدين القزويني، واعظ، عالم بالحديث، من أهل قزوين مولداً ووفاةً أقام زمناً في بغداد، ودرس بالنظامية، وكان إماماً في فقه الشافعية (ت٥٩٠ هـ /١١٩٤م). قاضي شهبه، تقي الدين بن احمد (ت٨٥١ هـ /١٤٤٧م) طبقات الشافعية، ط١، ج٢، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦ ص٢٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومجالس ابن الجوزي جليّةً واضحة على العامة، فقد اندفع كثير من الناس يبكون، وانتهز العاصون هذه الفرصة فأعلنوا توبتهم، وفرارهم من الذنوب والمعاصي[1].

ومن أشهر المجالس التي عقدت في عهد الناصر مجلس الشيخ أبي الفرج بن الجوزي فقد عقده مرة بأمر من صاحب بيت المال، وحضره بعض الأفاضل كأبي الخير القزويني وعدد من علماء بغداد المشهورين، لمناقشة بعض الأمور الاقتصادية كزكاة بعض الأموال المختلف على زكاتها[2].

ويروي ابن جبير أنه حضر عدداً من هذه المجالس، فقد رأى جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع، وقد بسط بالحصر[3]، كما أنه حضر مجالس أخرى في مسجد معروف الكرخي وباب البصرة، وبنهر المعلّى وبجامع القصر وجامع الرصافة وجامع المنصورة وتربة أم الخليفة، وفي غير ذلك من الأماكن المختلفة[4].

وكان الخليفة الناصر قد حضر بعضاً من هذه المجالس، وذلك حين التقى بالشيخ عبد المغيث في إحدى المرات عند قبر الإمام أحمد بن حنبل، وسأله الخليفة : أنت عبد المغيث الذي صنف مناقب يزيد؟ فأجاب: معاذ الله أن أقول: إن له مناقب، ولكن من مذهبي: أن الذي هو خليفة المسلمين إذا طرأ عليه فسق لا يوجب خلعه، فقال له الناصر: أحسنت يا حنبلي، واستحسن منه هذا الكلام، وأعجبه غاية الإعجاب[5].

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص٢٢٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٥.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٧.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٨١-٥٠٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٦.

(٥) ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت٧٩٥ هـ /١٣٩٣م) ذيل طبقات الحنابلة، ط١، ج٢، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٥ ص٣٥٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهناك مجلس آخر عقده حســن بن محمد الدرزيني عند باب حجرة الخليفة، واســتمع الناصر لحديثه، وقد كان الناس يأتون إليه وتحديداً في ليالي رمضــان حيث تنتشرــ هذه المجالس[١]، والشــيخ حســن بن علي بن حمزة الحرّاني المقرئ عقد مجلســاً، وحضرــه الناس على كافة طبقاتهم من نواحي بغداد[٢]، وهذا أبو حفص عمر بن محمد البكري الملقب بشــهاب الدين الســهروردي، الفقيه الشــافعي المذهب كثير الاجتهاد، كان قد عقد مجلساً بباب بدر، فأرشد ووعظ واستمع إليه خلق كثير[٣]، وفي سنة ٦٠٦ هــ /١٢٠٩م وفد إلى بغداد القاضي نجم الدين خليل رسول العادل الأيوبي، فعقد مجلس مناظرة، حضرـه نائب الوزارة ابن أمسـينا، وصـار يدلّل على وجوب الزكاة في مال الصـبي والمجنون، فاعترض على رأيه الشيخ مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع مدرّس المدرسة النظامية واحتدم النقاش في المجلس[٤].

وفي سنة ٦٠٠ هــ /١٢٠٣م قدم إلى بغداد أبو الفتح ابن أبي نصر الغزنوي رسول السلطان شهاب الدين الغوري، وطلب من الناصر أن يعقد مجلســاً للوعظ بباب بدر، فأذن له، ودُعي الأمراء والأعيان والفقهاء والصـوفية لحضـوره، فوعظ وأرشد، ودعا للخليفة الناصر، وأعلن تبعيّة السلطان شهاب الدين الغوري للخليفة في بغداد، وفي حديثه تطرّق إلى النعم التي أنعمها الله تعالى على أهل بغداد، ومن أهم هذه النعم قربهم من الخليفة، إلى غير ذلك من الكلام الحسن[٥].

المبحث الرابع: المرافق الاجتماعية

إن أهم ما يُذكر للناصر هو إنشـائه لدور الضـيافة التي اهتمت بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة وإطعامهم في شــهر رمضــان المبارك، وقد أقيمت في عشرـين محلة من محال بغداد الشرـقية والغربية، وأوكل لأشـخاص ذوي نزاهة وعدل وأمانة للتعهد بها والإشراف عليها، وطلب من كل صاحب محلة من محال بغداد أن يسجّل أخبار محلّته، فتم تدوين ما يقرب من خمسمائة شخص، فعمّمت هذه الصدقة على الفقراء والمساكين وانتفعوا بها وتفرّغوا للعبادة، وبالتأكيد هذا كان غير ما ينفق على العلماء

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٨٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٨.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٢٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٨.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١٤٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٨.

(٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٨٤. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٢٨.

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص١١٩-١٢٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والفقهاء والشيوخ والصوفية [1]، وفي سنة ٦٠٥ هـ /١٢٠٨م بنى الناصر داراً أخرى للضيافة، بناها لحجاج بيت الله الحرام، الوافدين على بغداد في طريقهم للحج، ورتّب فيها من كل أنواع الأطعمة والمشارب، وأوعز بأن يُعطى كل فقير ديناراً عندما يعزم على السفر، وأن يُكسى ويُعطى ما يحتاج إليه من مؤونة[2]. ومن أهم المرافق الربط[3] والزوايا[4] والخوانق[5]، وقد بنى الناصر من هذه المؤسسات عدداً كبيراً، وأوقف عليها أوقافاً جزيلة، وكان يفرّق على الفقراء والمساكين والمنقطعين في سائر الأربطة والزوايا ما يحتاجونه من دقيق ولحم وخبز[6].

ومن المرافق أيضاً البيمارستانات[7] التي قدمت مجانية العلاج للفئات المعوزة والفقيرة بالإضافة إلى الأغنياء الذين لا يجدون دواءً لعللهم، وكان بيمارستان ببغداد وهو على دجلة، يتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل اليه.... [8]"

---

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٦٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٤٠.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٩-٢٣٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٤٠.

(٣) الربـاطات هي المدن التي يرابط فيها المسـلمون للجهاد في سـبيل الدفاع عن الوطن وحماية الدعوة الإسـلامية في دار الإسلام، وفي العصور الإسلامية المتأخرة، تحولت هذه الكلمة عن مفهومها العسكري حتى أصـبحت تعني نفس ما تعنيه كلمة الزاوية والخانقاه. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج٦، دار الاجتهاد، بيروت ١٩٩٠، ص٦٢.

(٤) الزوايا أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لأشخاص قليلين يقيمون فيها في الغالب للعبادة وهي أصـغر من الرباط، وربما كانت جزءاً منها حيث كانت تعد لإقامة بعض الصـوفية والفقراء والأيتام وغيرهم. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصـر في العصـرين الأيوبي والمملوكي، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٨ ص١٠٥.

(٥) الخانقاه مكان للتعبد والزهد والبعد، ودخلت هذه الكلمة للعربية منذ انتشـار التصـوف في الإسلام، وقيل سميت بهذا الاسم (خانقاه) من الخنق لتضييق الصوفية على أنفسهم. حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط١، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٠

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٣٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٤٠-٣٤١.

(٧) بيمارستان كلمة فارسية من بيمار بمعنى مرض وستان لاحقة تفيد المكان وتعني دار الشفاء أو المستشفى. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت ١٩٨٠ ص٣٣-١٤٥.

٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن المرافق المهمة التي يشار إليها بالبنان والتي لم تقتصر على بغداد بل إنها غدت علامة مميزة وفارقة في الحضارة الإسلامية هي الحمامات، ففي سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٥م حين وفد ابن جبير على بغداد أعجب بحماماتها، فهي لا تحصى عدة، وذكر أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل[١]، وكانت الحمامات تحتوي على مخادع مفروشة بالفسيفساء، وفي كل مخدع حوض من الرخام فيه أنبوبان للماء لبارد، أما الغرف الخارجية فكانت للاستراحة وتناول الأطعمة الخفيفة[٢].

وأشرنا سابقاً إلى إحسان بعض الأمراء مثل مظفر الدين كوكبري أمير إربل الذي أنشأ دار مضيف يأوي إليها كل من يفد إلى إربل من الآفاق والنواحي المختلفة، من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ورتّب لهم فيها الغداء والعشاء ومصاريف السفر، وبنى أيضاً بيوتاً للزمنى والعميان، وقرّر لهم ما يحتاجون إليه في معاشهم، وكان يتفقّدهم بنفسه كل اثنين وخميس في وقت العصر، وبنى داراً للأرامل من النساء، وأخرى للّقطاء، وأخرى للأيتام، وأجرى على هؤلاء نساء مرضعات تكون مهمتهن إرضاع الجائع من الأطفال، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه، وكان يتفقّد أحوالهن من حين إلى آخر، يقول في ذلك ابن خلكان: " وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملأها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته، ويسأله عن حاله ويتفقده بشيء من النفقة، وينتقل إلى الآخر، وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى داراً للنساء الأرامل، وداراً للصغار الأيتام، وداراً للملاقيط رتب بهم جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهم ويعطيهم النفقات زيادة على المقرر لهم، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهيه وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها، ولهم الراتب الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الإنسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله، وبنى مدرسة رتب فيها

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٤١.

(٢) فيليب، حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٤١٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقهاء الفريقين من الشـافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه، ويعمل السماط بها ويبيت بها ويعمل السماع، فإذا طاب وخلع شيئاً من ثيابه، سير للجماعة بكرة شيئاً من الأنعام.....[1]"

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١١٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٣٤١-٣٤٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الخامس

سياسة الخليفة الناصر لدين الله الاقتصادية من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

حين يكون الحديث عن الاقتصـــاد فإنه يســـتلزم التطرق لعدة ميادين والتي تشـــكل بمجموعها النظام الاقتصادي، وهي الزراعة والصناعة والتجارة والإقطاع.

المبحث الأول: الزراعة

تميزت بلاد المشرـــق الإســـلامي بشـــكل عام بإنتاج مجموعة من المحاصـــيل الزراعية، كالحبوب والخضرـوات والفواكه وغيرها من المنتجات الغذائية ومن أهمها التمر وهو من أكثر الصادرات العراقية إلى بلاد الهند، ومن أشـهر المدن بإنتاجه بلدة عين التمر وواضـح من التسـمية أنها أنتجته بغزارة، وهي بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا، منهما يجلب القسب[١] والتمر إلى سائر البلاد، وهو بهـا كثير جداً[٢]، وهذه مدينة هيت القائمة على نهر الفرات اشـــتهرت بإنتاج التمور " فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة"، وكانت تتاجر به مع الشام حيث كانت على ممر القوافل المتجهة إلى بلاد الشام[٣]، ومن المدن العراقية التي اشتهرت بإنتاج النخيل مدينة بعقوبا وهي على نهر ديالى من جانبه الغربي، ويجري في وســـطها نهر جلولاء، وهي كثيرة الأنهار والبســـاتين، واســـعة الفواكه متكاثفة النخل، وبها رطب وليمون، يضرب بحسنها وجودتها المثل[٤]، وكذلك مدينة بادرايا التي تقع على أطراف واسط والتي اشتهرت بإنتاج التمر القسب اليابس الغاية في الجودة واليبس[٥]،

وليســت مدينة الحلة ببعيدة عن ذلك فقد زارها ابن جبير وأعجب بما شاهده فيها : " .... متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً، فديارها بين حدائق النخيل..." [٦]،

---

(١) القســـب: تمر يـــابس يتفتـــت في الفم صـــلـــب النواة. الفـــارابي، أبو نصـــر إســـماعيل بن حماد (ت٣٩٣ هـــ /١٠٠٣م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط٤، ج١، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧ ص٢٠١.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٦.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٢١.

(٤) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣.

(٥) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣١٦-٣١٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣١-٢٣٢.

(٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٦٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأيضـاً مدينة واسـط التي نالت اعجاب الجغرافي ياقوت الحموي حين مرّ بها إذ قال: " ورأيت أنا واسطا مراراً فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوت الحصر، وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشياء ما لا يوصف....." [١]، وقريب من هذا الوصف تكون خوزستان فيقول: " وأما ثمارهم وزروعهم فإن الغالب على نواحي خوزستان النخل ولهم عامة الحبوب من الحنطة والشعير والأرز فيخبزونه وهو لهم قوت كرستاق كسكر من واسط"[٢]، واشتهرت كذلك سجستان بزراعة النخيل حتى تكاثر بها[٣]، وانتشرـ كذلك في سـمنان الواقعة بين الري وهمذان[٤]، ونمضيـ مع ياقوت إلى الشرـق حيث مدينة كازرون فيقول : " وبكازرون تمر يقال له الجيلان يتفرد به ذلك الموضـع ولا يكون بالعراق ولا بكرمان مثله ويحمل منه إلى العراق في الهدايا على كثرة التمور بالعراق... [٥]"، فيظهر أن تمر كازرون لا نظير له في المنطقة على ذمة ياقوت، واشـتهر اقليم خراسـان بشـتى أنواع الحبوب ولا سـيما القمح والشعير، وكان الأهالي يقايضون به مع بعض البلاد المجاورة لهم[٦].

وإن انتقلنا إلى محاصيل أخرى مثل السكر فإن هناك مناطق كثيرة اشتهرت به، مثل كرمان وكورة سـابور وخوزسـتان، وسيرجان قصبة كرمان، وولاية مكران[٧]، ومدينة جرجان[٨]، أما القطن فقد اشتهرت بـه بلدة حربي وهي في أقصىـ دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة، تنسـج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل إلى سـائر البلاد[٩]، أما القطن الموصـلي الذي كان يزرع في الموصـل فكان من أجود أنواع القطن، وكذلك قطن بلدة رأس العين القريبة من منابع نهر الخابور، وقطن ماردين الذي يزرع بكثرة في نواحيها[١٠].

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٥٠.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٥.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٩٠.

(٤) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٥١.

(٥) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٢٩.

(٦) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣٤.

(٧) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٦٨-١٧٩، ج٥، ص١٨٠، ج٢، ص٤٠٥.

(٨) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١١٩.

(٩) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣٦.

(١٠) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت٧٣٢ هـ /١٣٣١م) تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين ، دار صادر، بيروت ١٩٩٠ ص٢٧٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي أرض السـواد كانت تزرع البقول والثمار والجوز والبرتقال وغير ذلك من المنتجات التي ينزرع في المناطق الحارة والباردة، وما كان يخلو منها بلد واحد من بلاد العراق، وفي المشرق الإسلامي اشتهرت مـدن معينـة كـذلـك فيورد فيليب حتي في كتابه ما نصـــه: " كورة بخارى في رأي جغرافيي العرب جنة حقيقية، فهنا بين سـمرقند وبخارى يقع وادي الصـغد المعدود من جنان الأرض الأربع، والجنان الأخرى هي شـعب بوان في فارس وبسـاتين الأبلة الممتدة من البصرة إلى الجنوب الشرقي وغوطة دمشق، فكان ينمو في جناين هذه الكورة شتى أنواع الأشجار المثمرة والبقول والأزهار"[١]، وفي بغداد كان يزرع التفاح والكمثرى والخوخ والإجاص والرمان والقنب والسفرجل والبطيخ والتين والخيار والأترج والعنب، وتميزت سونايا وهي قرية قديمة كانت ببغداد بالعنب الأسود الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب[٢]، واشتهرت شـهربان الواقعة شرقي بغداد ناحية الخالص بجودة الرمان، وكذلك صيرفون إحدى قرى دجيل بالليمون الحلو، وكان الناس يطلقون تسـمية " شان انجير" على تين حلوان لشدة جودته " وتينها ورمانها في غاية الطيب، لم يوجد في شيء من البلاد مثلهما" [٣].

وانتشرـــت زراعـة العنـب في العراق، ففي أطراف اربيـل كانت بلد اشـــقلاباذ حيث زرع وأنتج بكميات كبيرة لخصـوبة الأرض، وزرع أيضـاً بشهرستان إحدى مناطق بلاد فارس وهي قصبة سابور، وفي بلاد ما وراء النهر عرفت مدينة فرغانة، وزرعه أيضـاً أهل سـابور فجعلوه من منتجاتهم الرئيسـة، وفي بلـدة الطـاق من مدينة ســجســتان توفر العنب بشــكل كبير، ويعد كذلك من أهم منتجات مدينة جرجان[٤].

---

(١) حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٤٢٩-٤٣٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣٨.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٨٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٣٩.

(٣) القزويني، زكريا بن محمد محمود (ت٦٨٢هـــ/١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٩٥ ص٣٥٧.

(٤) ليســترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد، ومطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغـداد ١٩٥٤ ص٤١٠-٤١١-٤٧١-٥٣١. محمـد، عودة الروح للخلافـة الإسلامية، ص٢٣٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكـان يزرع الأترنج والنارنج في بعض نواحي العراق وبلاد المشرـق الإســلامي، وجلب إلى هذه المنـاطق من الهنـد منـذ القرن الرابع الهجري/ العـاشر الميلادي، فـاشــتهرت بـه رامهرمز من بين مـدن خوزســتان فكانت تجمع النخل والجوز والأترنج[1]، وزرع كذلك في البصرــة وجرجان وفي قرية جبة من العراق، وفي مدينة سنجار إحدى مدن الجزيرة الفراتية، وزرع في اقليم طبرستان وفارس وخوزستان[2].

أما الرياحين الورود فكانت من أفضــل منتجات العراق وبعض أقطار المشرـق الإســلامي، مثل الرياحين والبنفســج والنرجس، واشــتهرت به أيضــاً بلاد ما وراء النهر مثل فرغانة والشــاش وغيرها من المناطق، ووصـف القزويني الورد الجوري نسـبةً إلى جور إحدى قرى فارس بأنه أحمر صـافي اللون يعتبر من أجود أنواع الورود، وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

أطيب ريحا من نسيم الصبا، ... جاءت بريا الورد من جور[3]

وأنه يتمثل به بطيب رائحته وهذا سر تقدم صناعة العطور، كما سيأتي في المبحث اللاحق المختص بالصناعات.

المبحث الثاني: الصناعات

سـنبدأ بالنسـيج وهو من أوائل الصـناعات التي ابتكرها الانسان ليستر عورته وليتقي حر الصيف وبرد الشتاء، من المعروف أن صناعة النسيج في التاريخ القديم كانت ميزة امتازت به الحضارة الفارسية فيما اصـطلح عليه بالسجاد العجمي، ولكن مع ظهور الحضارة الإسلامية برزت مدن اختصت واشتهرت بالنسـيج، مثل مدينة الموصـل، فهي التي أنتجت الموسلين، مثل دمشق التي أنتجت الدمقس[4]، ويرجع تاريخ النسيج في الموصل إلى ما قبل الإسلام، وفي العصر الإسلامي غدت من أهم المراكز في إنتاجه، وكان نسّــاجوا الحرير يتخذون حواشي مقصّــبة للتزيين، ويوشّــونها أحياناً بخيوط الذهب والفضــة، ولم تكن شهرة الموصل في المنسوجات القطنية بأقل من شهرتها في المنسوجات القطنية، فقد عرف الشاش الموصلي الذي يتّخذ لتزيين عمائم الرؤوس، ولما كانت المنتوجات تزيد عن الحاجة كانت تصدّر إلى الخارج[5].

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٧.

(٢) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٨٩-٩٠.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٥) الجميلي، رشــيد، دولة الأتابكة في الموصــل بعد عماد الدين زنكي، ط١، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٠ ص٣٠٥-٣٠٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٤٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واشـتهرت كازرون إحدى مدن فارس بصناعة النسيج وأطلق عليها دمياط العجم[١]، لكثرة ما كان يصـنع بها من ثياب الكتان، وعندما يقال " الثياب التسـترية" فإنها منسوبة إلى مدينة تستر وهي محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي بين دجلة وباب البصرة[٢]، بينما يعزو القزويني اشـتهار تسـتر بالنسـيج بسـبب غزو بعض الأكاسرة لها الروم وحملهم الأسـارى إليها وأسـكنهم فيها فظهرت فيها صـنائع الروم وبقيت في أهلها[٣]، واشـتهر اقليم فارس بصناعة النسيج كذلك، ففي مدينة يزد صُنع الحرير والسندس، وفي مدينة غندجان صـنعت البسـط والسـتور والمقاعد[٤]، وبمدينتي توج وفسـا كثرت الأنوال المخصـصة لصناعة النسيج[٥].

وفي الكرخ على مقربة من بغداد كانت تنسج المنسوجات الإبريسمية، وكانت مدينة تكريت مركزاً من مراكز الصـناعات الصـوفية، وكان الثوب المعروف بالكرباسي الصفيق من إنتاج مدينة بلدة الحظيرة الواقعـة بـالقرب من دجيـل[٦]، وتميزت الكوفـة عن غيرهـا من المدن بعمائم الخز الحريرية التي عرفت لاحقاً بالكوفيات، وأيضـاً مدينة الأبلّة اشـتهرت بعمل ثياب الكتان الرقيقة، واختصـت النعمانية بصناعة الأكسية وثياب الصوف[٧].

وفي بغداد عاصـمة الخلافة لا بد أن تشـتهر صـناعة المنسـوجات خاصـة إذا علمنا أن هناك دار الطراز، وهي مصـانع تصـنع فيها الخلع المطرّزة تحت إشراف موظفين معينين، ثم يحملونها إلى البلاط وكانت تحمل اسـم الخليفة منقوشـاً [٨] ، فمحلة العتابين في بغداد اشتهرت بإنتاج الثياب العتابية، وهي في الجانب الغربي من بغداد، وهي منسوبة إلى عتاب أحد أحفاد بني أمية، وتمتاز هذه الثياب بأنها من الحرير ونـادراً ما تكون من القطن، وهي كما يذكر ديمومبين : " مختلفة الألوان جيدة الصـنع، وكانت بعض أنوال البلاد الإسـلامية تقلد ما ينسـج منها ببغداد، وتسـميه باسـمها، فهذه تبريز أشـهر مدن أذربيجان أطلقت على منتوجاتها اسم العتابي[٩].

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٤٤.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣١.
(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٧١.
(٤) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٨٢.
(٥) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢١٦. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٦) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٤٤.
(٧) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٠٩-١١٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٥٢.
(٨) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٣٣٠-٣٣١.
(٩) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص٢٥٣-٢٥٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولمدينة ماردي نصيب آخر من إنتاج النسيج، وبالتحديد كانت تصنع الثياب من الصوف[1]، وهناك الثياب النرسية المنسوبة إلى نهر نرس القريب من الكوفة[2]، ومن أشهر أنواع الثياب التي يرد ذكرها في كتب الأدب والتراث ما يسمى بالثياب الإبريسمية، وهي من أرقى أنواع الحرير وتباع إلى جميع الآفاق[3].

وإذا انتقلنا للتحف المعدنية فإننا سنجد أن الموصل تميزت بهذه الصناعة، ويعزى ذلك إلى توافر معدن النحاس في الخابور، وكانت تميز هذه التحف بالرسومات الآدمية والحيوانية، وبالتطعيم بالذهب والفضة، وكان لمدرسة الموصل أثرها في تقدم هذه الصناعة لكثرة من هاجر إليها من صنّاع الموصل الذين برعوا في هذا الفن[4]، إلا أن هذه الصناعة لم تلبث إلا وأصابها الركود عندما هاجم المغول بلدان الخلافة الشرقية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[5].

ومن الصناعات التي اشتهرت بها العراق صناعة العطور، وبالتحديد في وادي الرافدين، وفي بلاد فارس، وفي عهد الخليفة الناصر كانت أفضل العطور تستخرج من الورد الأحمر الذي كثر في رساتيق مدينة جور، وكان مضرباً للأمثال[6].

ونختم الحديث عن الصناعات بصناعة الزجاج، فيذكر أحد المؤرخين المحدثين أن بغداد وحدها كانت تضم أربعة آلاف معمل لصناعة الزجاج، وكان يطلى بالميناء ويلوّن بالألوان الزاهية، وإن فن صباغة الزجاج وتلوينه وترصيعه بالجواهر أخذها العرب عن الفرس، وكانوا يكتبون عليه بالذهب كتابات مجسّمة، ويرسمون على الأقداح والكؤوس صوراً مختلفة[7].

المبحث الثالث: التجارة

ظل العراق طوال العهد العباسي يستورد كميات هائلة من السلع المختلفة، التي كانت ترد إليه من جميع أنحاء العالم، وإن الثراء المادي الذي بلغه العباسيون كان من أهم العوامل التي ساعدت على

---

(١) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٥.

٣) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١١٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٥٠.

(٤) الجميلي، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٥) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٦) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨١. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٧) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٣٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورود عدد هائل من السلع الأجنبية منها الضروري ومنها الكمالي، وقد وردت في المصادر معلومات هامة عن السلع التي وردت العراق، مثل التبصّر بالتجارة للجاحظ، وكتاب البلدان لليعقوبي، وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل، وكتاب أحسن التقاسيم للمقدسي.

فمن الهند كانت تأتي الأحجار الكريمة والياقوت والأطياب بأنواعها، والعنبر والعود الفاخر وجوز الهند، والقرنفل والفلفل، والنيل الذي كانت تصبغ به الملابس، والسيوف الهندية والتحف[١].

ومن الصين كانت تأتي ثياب الحرير والديباج والكاغذ، والمسك الجيد والعود، والرقيق المخصي، وأدوات الذهب والفضة[٢]، ومن أقاليم أواسط آسيا كانت ترد مجموعة واسعة من السلع المختلفة، فمن خوارزم يُجلب المسك الجيد، وفرو الثعالب والسمور، والفنك " الرصاص، أما من سمرقند فكان التجار يجلبون الكاغذ والبغال والثياب السمرقندية[٣]، ومن إقليم تركستان كانت تجلب أنواع جيدة من الثياب، أما أهم سلعة من أواسط آسيا فكان الرقيق الأبيض من الترك، وتعتبر مدينة سمرقند أهم الأسواق للرقيق[٤].

ومن إيران كان تأتي الجياد والثياب المروية، أي من مرو، والزئبق والجوخ، وكانت الأسلحة تأتي من الري، واشتهرت أصفهان بالعسل والزعفران والتفاح، ومن الأهواز كان يجلب السكر والديباج والزعفران الجيد، ومن أرمينيا كان يجلب الفرش والصوف والسمك المملح والبغال والجياد[٥].

ومن بيزنطة كانوا يستوردون العقاقير والديباج وأواني الذهب والفضة، والمصطكي والمرجان والثياب الكتانية والجواري الروميات، وجلود الخزّ والوبر[٦]، ومن بلاد السودان الشرقي كان يجلب الرقيق الأسود والعاج والعنبر والتوابل وغيرها من السلع، أما المناطق الإسلامية فكان يرد منها للعراق

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر(ت٢٥٥ هـ/٨٦٩م) التبصر بالتجارة، ص٢٥.

(٢) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٦.

(٣) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٩.

(٤) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص٧٧.

(٥) المسري، حسين علي، تجارة العباسيين الخارجية، الكويت ١٩٨٣ ص٢٠٤.

(٦) ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد(ت٢٨٠ هـ /٨٩٣م) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت ١٨٨٩ ص٩٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل إقليم بما يكثر فيه، فاليمن يصدر العقيق والعنبر والبغال والحمير، والكندر[1]، ومن الشام كان يجلب الدقيق وزيت الزيتون والسكر والفواكه خاصة التفاح والتين، والزجاج والأدوات الزجاجية والقطن ومنتوجاته[2]، ومن فلسطين الزيت والقطّين، والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن، وزبيب العينوني والتفّاح[3].

ومن مصر- كان يستورد الورق وبعض أنواع الأقمشة مثل الديبقي، المنسوب لديبقو والتنيسي المنسوب لتنيس، والستور والبسط والمنتجات الصوفية[4].

أما الهند فأهم سلعها التي كانت تصدّرها للعراق هي الأحجار الكريمة والأطياب والبواقيت بأنواعها، والعنبر الذي كان يؤتى به من سواحل الهند الداخلية، ويحمل إلى البصرة، وأشهر العنبر المسمى كرك بالوس وينسب لقوم من الهنود اختصاصهم بجلبه، حيث يأتون به لساحل عمان ويشتريه التجار منهم[5]، وكان يجلب الياقوت بأنواعه وأشكاله والدر والبلور والسنباذج (مادة تعالج بها الجواهر)، واشتهرت مدينة كلاه الهندية بإنتاج الرصاص المعروف بالقلعي الذي كان يرد إلى العراق [6]، كما دخلت بعض المحاصيل الزراعية إلى العراق مثل البرتقال والليمون عن طريق عمان[7]، ومنها إلى البصرة ثم إلى باقي أنحاء العراق، وحتى شتلات أشجار النارنج والأتراج قد جلبت من الهند وبيعت في أسواق بغداد، كما استورد خشب الساج من الهند، وكان هذا النوع من الخشب يعتبر أفضل ما استعمل في بناء البيوت في بغداد[8].

أما من الصين فقد وجدت المنتجات الصينية بكميات كبيرة في أسواق بغداد، ولكنها كانت مرتفعة الثمن، ولعل ذلك يرجع إلى طول المسافة، وأخطار الطريق التي تؤدي إلى تحطم السفن

---

(١) الكندر هو (اللبان) نبات من الفصيلة البخورية يفرز صمغاً. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، دار الدعوة، اسطنبول ١٩٨٩ ٨١٤.

(٢) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٣٨٠ هـ /٩٩٠م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، كتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١ ص١٨٠.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٨٠.

(٤) المسري، تجارة العباسيين الخارجية، ص٢٠٦.

(٥) الحسيني، محمد صادق، عمران بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٣٠ ص١٤٠.

(٦) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٩٢.

(٧) سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص١٢٧.

(٨) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتعرض لأعمال القرصنة، ومن السلع التي وردت على أسواق بغداد الورق الصيني حيث وجدت منه دفاتر كثيرة، بالإضافة إلى ثياب الحرير والديباج والسروج واللبود والغضائر الفاخرة، والكاغذ الجيد والمواد والطواويس والدارصيني[١]، والمسك وأفضله مما يؤتى به من خانقو مرفأ الصين العظيم، وكان ذو رائحة قوية، ومن الطريف ما يذكر أن التجار لم يتمكّنوا من إخفائه إذا ما وصلوا العشّارين داخل حدود العراق، وأقل منه في الجودة مسك قنبارا، وكثيراً ما كان التجار يغالطون به وينسبونه إلى المسك التبتي[٢].

ومن خراسان لعب التجار دوراً واضحاً في العمليات التجارية، فقد كانوا يجلبون معهم منتجات بلادهم ويبيعونها في بغداد، وكانوا يجنون أرباحاً كبيرة من هذه التجارة[٣]، فكان يرد من خراسان العمائم الخراسانية والثياب الخراسانية من إقليم الرحاب[٤]، وكانت تجلب الإبريسم[٥] والأبواب وثياب الكتان وثياب الصوف والرقيق والزعفران والبسط والوسائد والستور والجياد والبغال[٦].

ومن نيسابور كانت تجلب الثياب البيض الخفيفة والعمائم والقز والسمسم، وفرو الثعالب والحصر والحبوب والديباج والتمور، والحبال والهب واللبود والبسط، والحقائب والمصنوعات الجلدية، والصابون والخيول والبغال[٧]، والمشطي والحلل وثياب الشعر والغزل، ويذكر المقدسي أن إقليم السند كان فيه تجارات كثيرة وبضائع وفيرة، وأسعار ومتاجر وصناعات، وربما أن رخص الأسعار كان سبباً في تصدير منتجات السند إلى بغداد، وتحمل أيضاً الفيلة والعقاقير والقرنفل والخيزران، والكافور والفلفل والزنجبيل وثياب القطن[٨].

---

(١) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٧.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن اسحق (ت٢٩٢ هـ /٩٠٥م) البلدان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢ ص٣٦.

(٣) الجاحظ، عمرو بن محبوب (ت٢٥٥ هـ /٨٦٩م) البيان والتبيين، ط٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٩ ص٣٧.

(٤) الرحاب هي ناحية بأذربيجان ودربند. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣١.

(٥)الإبريسم هو الحرير، وهو لفظ فارسي معرّب. الفارابي، الصحاح، ج٥، ص١٨٧١.

(٦) التنوخي، المحسن بن علي بن محمد (ت٣٨٤ هـ /٩٩٤م) الفرج بعد الشدة، ج٢، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨ ص١١.

(٧) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٧.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٣٢٣-٣٢٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن أشـهر الأطياب التي جلبت للعراق من الصـين ما أطلق عليه اسـم العود، ويقال له العود الصـنفي نسـبةً إلى البلد الذي يجلب منه في أطراف الصين[١]، ويصل من الصين أيضاً الجواري والخصيان وأواني الذهب والفضـة والأقفال والعقاقير[٢]، ويذكر اليعقوبي أيضاً أن طرائف من سلع الصين كانت تأتي على أسواق بغداد وكانت تلاقي رواجاً وإقبالاً كبيرين[٣].

أما ما كانت تصـدّره بغداد عاصـمة الخلافة للعالم الخارجي فإن معظم التجارات اشـتملت على المنسـوجات الصـناعية التي راجت في بغداد، كالحرير الفاخر والأقمشـة القطنية، والعمائم الرقيقة والمناديل بأنواعها، وكانت تصـنع في بغداد الأزر التي كانت تعمر أسـواق كثيرة من المدن العراقية[٤]، وهناك الآجر العراقي[٥] الشـهير الذي أرسـلت كمية منه لتزيين مسـجد القيروان، وقد شـاهد الرحالة العرب في الكعبـة قنـاديل من الزجاج العراقي تزيّنها نقوش جميلة، ولم تقتصـر صـادرات بغداد على منتوجاتها فحسـب، بل إنها صـدّرت في بعض الأحيان منتوجات مدن أخرى[٦]، ولقد كان تجار العرب يجلبون المنسوجات والمرايا والطيوب إلى بغداد، ثم بعد ذلك يتولى تجار بغداد تصدير ما فاض من هذه السلع إلى الخارج، وبذلك اصبحت بغداد مركزاً تجارياً عالمياً تتحدّد فيه أسعار السلع[٧].

يذكر الأيوبي أن السـنة ٥٧٥ هـ /١١٨٠م التي تولى فيها الناصر الخلافة كانت الأسعار مرتفعة فيقول: " وكانت الأسـواق تغلق في أكثر الأوقات لا يجسر أحد أن يبيع ويشـتري" [٨]، ويرجع الأيوبي السبب في ذلك إلى سوء إدارة وزير الخليفة المستضيء المسمى بابن العطار، وكذلك صاحب المخزن، فقد اسـتولى ابن العطار على جميع العاملات في واسـط، واحتكر غلّات سـائر البلاد ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب، فغلـت بذلك الأسـعار، فلما تولى الناصر الخلافة عزل ابن العطار وصـادر ما لديه، وتقدم أستاذ داره مجد الدين بن الصاحب ببيع الحبوب والغلات للناس، فرخصت الأسعار وكثرت

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ص٣٦.

(٢) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٦.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص٣٧-٣٨.

(٤) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٣٩.

(٥) الآجر هو الطين يشـوى بالنار ويسـتخدم في البناء. قلعجي، محمد رواس وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٨ ص٣٥.

(٦) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص٧٧.

(٧) العلي، صـالح، التنظيمات الاجتماعية في البصـرة في القرن الأول الهجري، ط٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٢ ص٢٢٥.

(٨) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخيرات، وفرّج الله عن النـاس ما كانوا فيه من قحط وشـــدة، : " وفيها تراخت الأســـعار جدا وكثرت الأمطار وأخصبت البلاد ونمت الزروع، وفيها أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب الدولة وضـــاعف أرزاق المماليك [١]، ويقول الحموي عن أحوال مدينة واســـط : " وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشـــياء ما لا يوصـــف بحيث أني رأيت فيها كوز زبد بدرهمين واثنتي عشرـــة دجاجة بدرهم وأربعة وعشرين فروجاً بدرهم والسمن اثنا عشر رطلاً بدرهم والخبز أربعون رطلاً بدرهم واللبن مائة وخمسـون رطلاً بدرهم والسـمك مائة رطل بدرهم وجميع ما فيها بهذه النسبة"[٢]، وفي سنة ٦٠٤ هـــ / ١٢٠٧م أمر الناصر بأن تلغى ضريبة المؤن، وهي كانت تفرض على كل المبيعات من سائر الأجناس والأماكن، وكان مبلغ ما يؤخذ منها مائتا ألف دينار سـنوياً يدفعها أصـحاب المبيعات لمستوفي الضرائب، وأمر قوام الدين نصرـــ بن ناصر صـــدر المخزن بتنفيذ ذلك[٣]، إن هذه الإجراءات عملت على تنشـــيط الحركة التجارية، وأدت إلى تراخي تدريجي للأسعار، ففي سنة ٥٩٦ هـــــ / كان سعر الكر[٤] من الحنطة خمسة عشر ديناراً، والشعير ستة دنانير، بينما في سنة ٦٠٥ هـ /١٢٠٨م كانت الأسعار قد رخصت فسعر الكر من الحنطة سبعة دنانير وعشرة قراريط بدل خمسة عشر، والشعير بثلاثة دنانير بعد أن كان بستة، إن هذه الأسعار كانت قد انعكست على التجارة إيجاباً، فتجاوز دخول بعض التجار مليون درهم، وهذا أحد تجار البصرة من أصحاب السفن الذين كانوا يتاجرون مع سائر البلدان وصل دخله مليون درهم، وكان التاجر العادي ينفق على بيته وأهله في ســـيراف[٥] الفارســـية ما يتراوح بين ثلاثين ألف ومائة ألف درهم[٦].

إنه لما ظهر المغول كقوة سـياسـية مؤثرة في شرق آسـيا في بداية القرن السـابع الهجري/ الثالث عشرـ الميلادي، واتخذوا من مدينة قراقورم عاصـمة لهم، سـعوا جاهدين إلى تنمية علاقاتهم الاقتصادية مع منطقة بلاد ما وراء النهر، وكانت ما وراء النهر في هذه الفترة تحت حكم الخوارزميين، وقد بعث

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٣٩.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٥٠.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٤) الكر من مكاييل العراق وهو ســـتون قفيزاً والقفيز عشـــرة أعشـــر أو خمسة وعشرون رطلاً بالبغدادي. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوســـف (ت٣٨٧ هـــــــ /٩٩٧م) مفاتيح العلوم، ط٢، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٠ ص٩٢.

(٥) ســـيراف مدينة جليلة على ساحل البحر كانت قديماً فرضة الهند، وكانت قصبة أردشير خرّة من فارس، وهى في لحف جبل عال جدا] بينها وبين البصرة سبعة أيام. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٩٤.

(٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٨، ص١٨-٢٦٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جنكيز خان الزعيم المغولي إلى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بهدايا ثمينة، وكان جنكيز يأمل من ذلك عقد اتفاقية تجارية تسير بموجبها القوافل بين البلدين، وبالفعل استطاب السلطان الخوارزمي لهذا الأمر وعقدت الاتفاقية، ونشطت الحركة التجارية بين البلدين، وأصبح التجار المسلمون والصينيين يخترقون أواسط آسيا حتى الصين، ويبدو أن هذا الازدهار لم يكن ليحصل لولا أن جنكيز خان قضى على قطّاع الطرق، وزوّد أهم مسالك التجارة بحرّاس من قبله، وأمرهم بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة عبر بلاده حتى اجتيازه للأرض التي يحكمها المغول، وأوصى جنكيز خان كل عمّاله بحسن معاملة التجار، وبذلك أمنت الطرق ونشطت حركة التجارة بين مشرق الدولة الإسلامية وبلاد الصين، وظل الوضع هكذا ما يقرب من عام، حيث أن السلطان الخوارزمي نقض الاتفاقية وقتل تجار المغول ورسلهم، وسد طرق التجارة في وجه القاصدين[1].

ولكن ما العامل الذي كان يوقف حركة التجارة؟ لعلنا نجد التفسير عند ابن الأثير، فهو يذكر في أحداث سنة ٦٠٢ هـ /١٢٠٥م ما نصه: " وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم، إلى مدينة طرابزون، وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته، فضيُق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم، والروس، وقفجاق وغيرها، براً وبحراً، ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس، لأنهم كانوا يتجرون معهم، ويدخلون بلادهم، ويقصدهم التجار من الشام، والعراق، والموصل، والجزيرة وغيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذى كثيراً، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله"[2]، فهو بهذا يعزو السبب إلى الحروب، ولا شك أن ما حصل لاحقاً من امتداد للجيش المغولي للغرب كان له أثر بالغ على حركة التجارة.

المبحث الرابع: الإقطاع

الإقطاع لغةً من قطعته أوصلت إليه القطع واستعملته فيه، وأقطع النخل إقطاعا إذا أصرم وحان قطاعه، وأقطعته: أذنت له في قطاعه، والإقطاع يكون تمليكا وغير تمليك. يقال: استقطع فلان الإمام قطيعة فأقطعه إياها إذا سأله أن يقطعها له ويبينها ملكا له فأعطاه إياها[3].

---

(١) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٤-٨٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٧٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٣٨. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٧٨.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٢٨٠-٢٨١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما اصطلاحاً فهو أن يدفع الأئمة إلى من يرون أن يدفعوا إليه شيئاً مما ذكرناه من الأراضي، يملك المدفوع ذلك إليه رقبته لحق الإقطاع ويجب عليه فيه العشر، ويعرّفه الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم بقوله: " أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبتها وتسمى تلك الأرضون: قطائع واحدتها: قطيعة"[1]، أما الماوردي فقد تحدّث عن اقطاع الاستغلال وأسار إلى أن يعطى بدل العطاء، " أهل الجيش هم أخص الناس بجواز هذا الإقطاع"، وهو يقر الإقطاع من أرض الخراج ويرفضه إن كان من أرض العشر[2]، وهو يقسم الإقطاع إلى نوعين إقطاع التمليك وتنقسم فيه الأرض ثلاثة أقسام، أ - الموات وهي على نوعين الأول ما كان مواتاً منذ القديم بحيث لم يعمر ولم يثبت عليه ملك، وهذا يجوز للسلطان أن يقطعه لمن يحييه ويعمره، ب - ما كان عامراً ثم خرب وصار مواتاً عاطلاً وهو على نوعين أحدهما ما كان جاهلياً كأرض عاد وثمود وهذا جائز إقطاعه، والثاني ما كان إسلامياً وقد اختلف الفقهاء في حكم إحيائه على ثلاثة أقوال، الشافعي ذهب إلى أنه لا يملك سواء عرف أصحابه أم لم يعرفوا، ومالك بن أنس ذهب إلى أنه يملك بالإحياء سواء عرف أصحابه أم لا، أما أبو حنيفة فقال : إن عُرف أصحابه لا يملك بالإحياء، وإن لم يعرفوا مالك بالإحياء رغم أنه لا يجوز على مذهبه أن يملك بالإحياء من غير إقطاع، فإذا عرف أصحابه لم يجز إقطاعه، وإن لم يعرفوا جاز إقطاعه[3].

ويلاحظ أن ملكية الإقطاع تكون غير كاملة قبل تمام الإحياء، وإنما يعتبر المقطع بمثابة واضع اليد ولا يكون مالكاً حتى يتم الإحياء، أما إذا عجز عن الإحياء لعذر ظاهر يظل واضع اليد حتى زوال عذره، أما إذا عجز لعذر غير ظاهر فله مدة ثلاث سنوات يبطل بعدها حيازة الإقطاع[4]، أما الأرض العامرة فهي على نوعين أحدهما الذي يعرف ملكه فلا نظر للسلطان فيه، إلا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال إذا كان في دار الإسلام، أما إذا كان في دار الحرب وأراد الإمام أن يقطعها ليملك المقطع عند الفتح، جاز ذلك، وثانيهما الذي لم يعرف مالكه وهو على ثلاثة أقسام، الأول أن يصطفيه الإمام لبيت المال وهذا لا يجوز إقطاع رقبته لأنه صار ملكاً لكافة المسلمين، وللسلطان الحق في التصرف به إما

---

(١) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٨٦.

(٢) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠ هـ /١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بغداد ١٩٨٩ ص٣٠٢.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٩٦.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٩٦-٢٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باستغلاله لبيت المال أو تعيين ذوي القدر للقيام بعمارته، والثاني أرض الخراج والتي لا يجوز إقطاع رقبتها تمليكاً، الثالث ما مات عنه أصحابه ولا يوجد له ورثة، فينتقل إلى بيت المال ميراثاً لكافة المسلمين، ولذلك لا يجوز إقطاعها ولا بيعها[1].

أما إقطاع المعادن وهي الأرض التي أودعها الله تعالى جواهر الأرض، فهي على نوعين : ظاهرة وباطنة، أما الزاهرة فهي ما ظهر جوهرها والتي يمكن الحصول عليها بغير عمل شاق كالملح والكحل والغاز والنفط، وهذه لا يجوز إقطاعها فهي لعموم المسلمين، أما الباطنة والتي لا يتوصّل إليها بعمل كالمعادن والذهب والفضة فيجوز للإمام أن يقطع منها، وهو إقطاع لا يملك المقطع به رقبة المعدن[2].

أما اقطاع الاستغلال فهو على نوعين العشر والخراج، فأما العشر فلا يجوز إقطاعه لأنه زكاة، وأما الخراج فله ثلاثة أحوال، الأولى أن يكون من أهل الصدقات فلا يجوز أن يقطع مال الخراج لأنه فيء لا يستحقه أهل الصدقة، كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء، والثانية أن يكون من أهل المصالح ممن ليس له رزق مفروض، فلا يصح أن يقطعه على الإطلاق، والثالثة أن يكون من أهل الجيش فيجوز لهم الإقطاع لأن لهم أرزاق مقدرة تصرف لهم[3].

وفي عهد الناصر نجد أنه أقطع أمراءه وقادته، فمثلاً في ٥٧٧ هـ /١١٨٢م تقدم الناصر إلى مجاهد الدين خالص الخادم أن ينظر في نهر ملك، ويرتب فيه من شاء من النواب والعمال والكتاب، وجميع ما يحصل من معاملات نهر الملك، فرض له عن نظره مالاً، وأذن له في استخدام وزير لتدبير أمره، شريطة أن يقوم بإرسال موارد نهر الملك إلى الخلافة، وهذا كان وفاءً من الخليفة لما أدّاه من خدمة في حقه حين كان أميراً، وقيامه بتربيته كذلك[4].

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٩٧-٣٠١. محمد، أمين صالح، النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ط١، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٤ ص١٤٤-١٤٥.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٣٠٤-٣٠٦.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١، ج١٣، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٧ ص١٢٢-١٢٤.

٤) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص٧٩. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٨٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي سنة ٥٩٦ هـــ /١٢٠٠م أقطع الأمير فلك الدين سنقر الطويل الناصري دقوقا[١] وتكريت وبين النهرين، وهي بلاد كانت بعيدة عن بعضها يصعب على الأمير سنقر إدارتها[٢]، وفي السنة التالية أقطع ضمان البصرة على ألأمير عماد الدين طغرل الخاص بمبلغ مائة ألف وخمسة عشر ألف دينار في السنة[٣].

وأقطع الأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج في خوزستان، وأرجع له بلدة الحلة التي كانت من قبل إقطاعاً له، وهذا بعد أن أطلقه من السجن، وكان قد وضعه في السجن بسبب وشاية من الوزير ابن يونس[٤]، وفي سنة ٦٠٤ هـــ /١٢٠٧م أقطع الناصر مملوكه الأمير علاء الدين تنامش دقوقا والدجيل[٥]، وذلك بعد أخذها من ابن ساوا النصراني، إذ ثبت للناصر أن الأخير تحكّم في المسلمين وأساء السيرة وتعسّف في جمع الأموال، وأنه بمساعدة الوزير ابن مهدي كان يأخذ أكثر أموال البلدتين ويقتسمها مع ابن مهدي، ولا يبقى للخليفة إلا النزر القليل[٦].

وفي سنة ٦٠٨ هـــ /١٢١١م أكرم الناصر الأمير مظفر الدين سنقر وجه السبع وأقطعه مدينة الكوفة[٧]، وأقطع الأمير سيف الدين طغرل الناصري البندنيجين[٨] واللحف[٩] والبلاد الجبلية، وأعطى ضمان قوسان بأضعاف ما كانت مضمونة به للنقيب العلوي جلال الدين أبي جعفر القاسم بن الزكي، صدر البلاد الفراتية[١٠].

---

(١) دقوقاء مدينة بين إربل وبغداد. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

(٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٧.

(٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٦-٤٧. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٨٨.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٤٨٠. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٨٩.

(٥) دجيل اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٤٣.

٦) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٥٣٥. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٨٩.

٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٠٣.

(٨) البندنيجين بلدة مشهورة فى طرف النهروان، وهى محال متفرقة البنيان، ونخلها متصل أكثرها باقطنايا، بها السوق والأمير والقاضى، ثم بويقيا، ثم سوق جميل، ثم فلست. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٩٩.

(٩) لحف صقع معروف من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي وهو دونها مما يلي العراق. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤.

١٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٢٩٣. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص٢٨٩-٢٩٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

تميز عهد الخليفة الناصر بأنه العهد الذي استطاعت في الخلافة العباسية أن تتخلص نهائياً من النفوذ الأجنبي الذي بدأ مع دخول البويهيين منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وانتهى بخروج السلاجقة أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر- الميلادي، وخلال المدة التي حكم بها الناصر وهي تقرب من نصف قرن استطاع الناصر أن يسير بالأمور الصحيح، ويبدو أنه اتبع سياسات مختلفة في الحكم وهذا ما منح الاستقرار النسبي في الحكم.

وبالرغم من ظهور الإمارات والدويلات المستقلة في بلدان الخلافة الشرقية، إلا أنهم كانوا دائماً يحسون بالحاجة إلى الاعتراف والمباركة من الخليفة، وهذا ما جعل العلاقات تتميز بشد وجذب وهذا ما لاحظناه في علاقة الخلافة مع كل من الخوارزميين والأتابكة والأيوبيين، ومن ناحية أخرى شهد العراق على عهد الناصر تقدّماً ملحوظاً في مجال الزراعة والصناعة، وترافق هذا النشاط مع حركة تجارية نشطت أتت بالسلع والبضائع من أقاصي الصين والهند ومرّت بطريق الحرير، ووصلت إلى بغداد، ثم تناقلها التجار من محطة إلى محطة حتى وصلت أطراف أوروبا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر

أولاً: القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣ .

٢. =====، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧ .

٣. =====، رسائل ابن الأثير، بيروت ١٩٥٩.

٤. الأزهري، محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ/٩٨١م) تهذيب اللغة، ط١، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١ .

٥. الأيوبي، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه (ت٦١٧ هـ /١٢٢١م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة (د.ت) .

٦. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك (ت٤٤٩ هـ /١٠٥٧م) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ط٢، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية ٢٠٠٣ .

٧. ابن بيدكين، ادريس بن بيدكين بن عبد الله، اللمع في الحوادث والبدع، تحقيق وتقديم صبحي لبيب، القاهرة ١٩٨٦.

٨. التطيلي، بنيامين بن الرابي يونة (ت٥٦٩ هـ /١١٧٣م) رحلة بنيامين التطيلي، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٢ .

٩. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط٢، دار الكتب والوثائق القومية، مصر ٢٠٠٥ .

١٠. التنوخي، المحسن بن علي بن محمد (ت٣٨٤ هـ /٩٩٤م) الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجى، دار صادر، بيروت ١٩٧٨ .

١١. الجاحظ، عمرو بن بحر(ت٢٥٥ هـ/٨٦٩م) التبصر بالتجارة،

١٢. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤ هـ /١٢١٧م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٩٠ .

١٣. ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت٨٣٣ هـ /١٤٢٩م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط٢، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ /١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط١، دار الكتب بيروت، لبنان ١٩٩٢ .
١٥. الحلبي، علي بن ابراهيم بن أحمد (ت١٠٤٤ هـ /١٦٣٥م) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧ .
١٦. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦ هـ /١٢٢٩م) ، معجم البلدان، ج١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩ .
١٧. الحميري، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت٩٠٠ هـ /١٤٩٥م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠ .
١٨. ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد(ت٢٨٠ هـ /٨٩٣م) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت ١٨٨٩ .
١٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨ هـ /١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨
٢٠. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٦٨١ هـ /١٢٨٢م) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٤.
٢١. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت٣٨٧ هـ /٩٩٧م) مفاتيح العلوم، ط٢، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٠.
٢٢. ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢١ هـ /٩٣٣م) جمهرة اللغة، ط١، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧.
٢٣. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨ هـ /١٣٤٧م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط٢، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٣ .
٢٤. =====، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠ .
٢٥. =====، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٣ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢٦. الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت٥٩٩ هـ /١٢٠٣م) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، الإدارة العامة للثقافة، مصر ١٩٦٠.

٢٧. ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت٧٩٥ هـ /١٣٩٣م) ذيل طبقات الحنابلة، ط١، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٥.

٢٨. ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت٦٧٤ هـ /١٢٧٥) الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٤ .

٢٩. سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت٦٥٤ هـ /١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥٢ .

٣٠. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١ هـ /١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى ط٢، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض ١٩٩٢ .

٣١. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ /١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٢.

٣٢. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٦٦٥ هـ /١٢٦٧م) الذيل على الروضتين، ط١، صححه محمد زاهد الكوثري، القاهرة ١٩٤٧ .

٣٣. ابن شداد، يوسف بن رافع (ت٦٣٢ هـ /١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مصر ١٩٠٠ .

٣٤. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت٥٤٨ هـ /١١٥٣م) الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤.

٣٥. الصابئ، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت٤٤٨ هـ /١٠٥٦م) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، الاسكندرية ١٩٩٠.

٣٦. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ .

٣٧. =====، نكت الهميان في نكت العميان، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣٨. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن محمد (ت٧٠٩ هـــــ /١٣٠٩م) الفخري في الآداب الســلطانية والدول الإسلامية، ط١، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت ١٩٩٧ .

٣٩. ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت٦٨٥ هـــ /١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول، ط٣، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت ١٩٩٢ .

٤٠. ابن العمراني، محمـد بن علي بن محمـد (ت٥٨٠ هـــــ /١١٨٥م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط١، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠١ .

٤١. الغساني، (ت٨٠٤ هـ /١٤٠٢م) العسجد المسبوك.

٤٢. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣ هـــ /١٠٠٣م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط٤، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧ .

٤٣. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت٧٣٢ هـــ /١٣٣١م) تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين ، دار صادر، بيروت ١٩٩٠.

٤٤. =====، المختصر في أخبار البشر، ط١ ، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٩٩٠.

٤٥. ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد (ت٧٢٣ هـــ /١٣٢٣م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق بشــار عواد ومعروف وعماد عبد الســلام رؤوف، دار الغرب الإســلامي، بيروت ١٩٩٧.

٤٦. قاضي شــهبه، تقي الدين بن احمد (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م) طبقات الشــافعية، ط١، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦ .

٤٧. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢ هـــ /١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت د.ت .

٤٨. القلقشـندي، احمد بن علي (ت ٨٢١هـــ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٧.

٤٩. الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧ هـــــ /١٢٩٨م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، تحقيق مصطفى جواد وسالم الآلوسي، بغداد ١٩٧٠ .

٥٠. =====، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسـية، تحقيق ونشر ميخائيل عواد وكوركيس عواد، وزارة الإرشاد العراقية، بغداد ١٩٦٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥١. الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) فوات الوفيات، ط١، ج٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣ ص١٨١.

٥٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤ هـ /١٣٧٢م) البداية والنهاية، ط١، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨.

٥٣. الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠ هـ /١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بغداد ١٩٨٩.

٥٤. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٣٨٠ هـ /٩٩٠م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، كتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١.

٥٥. المقريزي، أحمد بن علي (٨٤٥ هـ /١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧.

٥٦. النسوي، محمد بن أحمد (ت٦٣٩ هـ /١٢٤١م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر ١٩٥٣.

٥٧. النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٣٣ هـ /١٢٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤.

٥٨. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر د. ن، القاهرة ١٩٨٠ .

٥٩. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المراجع

١. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت ١٩٨٠.

٢. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية ١٩٧٨ .

٣. براون، إدوارد جوانفيل، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية أمين الشواربي، مصر ١٩٥٤.

٤. الجميلي، رشيد، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ط١، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٠

٥. الحسيني، محمد صادق، عمران بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٣٠.

٦. حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (٥٥٣-٦٢٢هـ/١١٥٨-١٢٢٥م)، بحث ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة، عمان ١٩٨٨ .

٧. حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، دار الفكر العربي، مصر ١٩٤٩ .

٨. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٨.

٩. =====، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت (د.ت).

١٠. حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط١، دار المسيرة، بيروت ١٩٨٠

١١. الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان،، بغداد ١٩٤٥.

١٢. الزركلي، خير الدين محمود، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ .

١٣. شفق، رضا زاده، تاريخ الأدب الفارسي، نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧.

١٤. عبد المولى محمد أحمد، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٦ .

١٥. العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، ج١، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٣٥ .

١٦. العلي، صالح، التنظيمات الاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٢.

١٧. القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، العراق ١٩٧١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٨. قلعجي، محمد رواس وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٨.
١٩. كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط١، بغداد ١٩٦٢.
٢٠. ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد، ومطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.
٢١. متى، عمرو، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، (د.ن) روما ١٩٩٦ .
٢٢. محمد، أمين صالح، النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ط١، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٤.
٢٣. المسري، حسين علي، تجارة العباسيين الخارجية، الكويت ١٩٨٣.
٢٤. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، دار الدعوة، اسطنبول ١٩٨٩
٢٥. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج٦، دار الاجتهاد، بيروت ١٩٩٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

The period of The Abbasi caliph Annaser ledin Allah which Abbasid cilapha removed the foreign control which started when the Buwayhe since fourth century/ tenth A.D، and finished with the Seljouq out in last of sixth century/ twelves A.D.

Abstract

In this age which Annaser ruled its century half، he had taken different political، and in his age he founded many of Community Forces، and impossible removed this forces، he put himself the president with ALsheq Abd aljabbar، ALfutooah will me the development institution، and the princess follow it. ، this study comes to analysis this period from the caliph Annaser ledin Allah and his picture in the resources and reference، then the study leaps out to study the relationship in caliph Annaser ledin Allah period، and describes the economic life in all its fields، relying on it to the resources and reference.

Key words: caliph Annaser ledin Allah، Abbasid cilapha، ALfutooah.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com